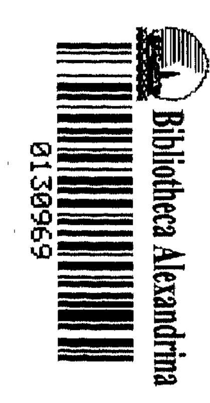
صور حضارية من التاريخ الإسلامي

تأليف
الدكتورة سوسن محمد نصر
كلية التربية - بنها
جامعة الزقازيق



١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م



صُوَرٌ حَضَارِيَّةٌ
من التاريخ الإسلامي

تـــأليف
الدكتورة سوسن محمد نصر
كلية التربية - بنهــا
جامعة الزقازيق

١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م



الإدارة في مصر في عهد الأمويين

تأليف
الدكتورة سوسن محمد نصر

١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م







من أهم ما تمتاز به الدولة الأموية أنها لم تأخذ عن الممالك والأقطار التى فتحت فى عهدها أو من قبلها مناهجها فى الحكم ونظمها فى السياسة فلقد قدر للدولة الفارسية أن تنهار أمام القوى الاسلامية الفاتحة وكذلك للروم أن يقهروا فى كل من الشام ومصر ولقد كان للامبراطورية الفارسية ، كما كان للامبراطورية الرومانية من نظم الحكم والاداره وتقاليد الحياة الشىء الكثير الا أن الأمويين لم يتأثروا بنظم هاتين الحضارتين ولم يأخذوا عنها الا القليل الضئيل ، ومن ثم أتفق المؤرخون على أن نظم الدولة الأموية كانت معظمها نظما اسلامية ، فالخلفاء كانوا يرسمون مناهج الحكم للولاة مستمدين ذلك من معينهم الأول من الذى نهلوا جميعا منه : الدين الاسلامى ٠ الا أن كتب التاريخ لم تذكر شيئا مفصلا عن نظم الادارة التى حكم بها القواد والولاة ابان الدولة الأموية — وانما ذكرت بعض الوظائف الغرض الذى نحن بصدده ٠ ويكاد يكون أهم ما عرضت له كتب التاريخ من الوظائف العامة ووظائف الولاية العامة على الصلاة ، وولاية الخراج ، والقضاء وامارة الجند ، والشرطة وبعض الدواوين ٠ والوظيفتان الأولى والثانية كانتا من اختصاص الخلفاء فهم يعهدون الا من يرون بهما أو بأحداهما حسب الظروف ، أما القضاء فكان التعيين فيه للوالى العام فى أغلب الأوقات ٠ فاستقصاء حلات توليه القضاء أيام الأمويين وجدت الولاة قد استأثروا منها النصيب الأعظم ولم أجد غير ثلاثة من الخلفاء تولوا بأنفسهم تعيين بعض القضاة وهم على سبيل التحديد : سليمان عبد الملك (اذ عهد الى القاضى عياض للمرة الثانية) ٠ وهشام بن عبد الملك (اذ عهد الى يحيى بن مأمون الخضرومى) ولا يفيد ذلك أن يد الخلفاء كانت تقصر دون الوصول الى مراتب القضاة بالعزل أو الاقرار ، فقد كان الخلفاء يعتبرون أنه من الأوفق أن يختار الوالى لقضائه من يثق هو بعلمه ودينه وورعه وحفاظه على حقوق الناس ٠ فقد عزل الخليفة هشام بن عبد الملك القاضى يحيى بن مأمون لما بلغه من شكاية من قضائه ومن تباطؤ كتابه عن أداء واجبهم نحو الناس الا اذا قدمت اليهم الرشوة ٠ فقد كتب هشام الى واليه الوليد بن رفاعة :

« أصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموما مدحورا ، وتخير لقضاء جندك رجلا عفيفا ورعا تقيا سليما من العيوب لا تأخذه فى الله لومة لائم(١) ، أما الوظائف الأخرى الباقية كامارة الجند ، أو رئاسة الدواوين أن تنصيب الحكام على الأقاليم — فقد كانت من صميم عمل الولاة ، اذ كانوا مسئولين أمام الخليفة عن أمور الأمن وسلامة الولاية ٠ وان من يقرأ للمؤرخين

---

(١) الولاة والقضاة : ص ٣٤١

الذين تعرضوا لتلك القضية يجد الأدلة على ذلك متواترة كثيرة ـ وفيما يلى سأعود لكل من تلك الولايات بشىء من التفصيل :

١ ـ الولاية العامة :

وقد كانت تعتبر أهم وظيفة دينية ومدنية معا ، فالوالى هو نائب الخليفة المتصرف بحكمته وسداد رأيه بما يصون الولاية ويمنعها ويحفظها من كيد الكائدين واغارة المغيرين ، عليه يقع العبء الأول واليه ترجع تصاريف الأمور فى ولايته ثم يخلف الخليفة فى امامة الناس فى الصلاة ولا يلى هذا الأمر الا المشهود لهم بفضل من الدين والتقى والورع والصلاح والمسلمون كانوا يقدرون الانابة على الصلاة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فحين اضطر (ص) الى انابة أبى بكر رضى الله عنه فى امامة الناس زاد فضل أبى بكر وعظمت نظرة الناس اليه وكان ذلك من أول الأسباب التى دعت الى مبايعته بالخلافة بعد رسول الله (ص) ومن ثم كان الخلفاء يهتمون باختيار الوالى بصفة عامة وباختيار الوالى على مصر بصفة خاصة لما لها من المركز الممتاز بين الأقطار الاسلامية لقربها من الشام من جهة ولأهميتها العامة من جهة ثانية ثم هى مركز تستطيع الدولة الاسلامية أن تتنفس منه الى غيرها من الأقطار الأخرى المجاورة فى البر والبحر ، كما حدث ذلك بالفعل ، وخراجها ونيلها ووداعة أهلها تضاف الى الأسباب التى حملت الخلافة على الاهتمام باختيار ولاتها • فهذا هو معاوية يعقد مع عمر بن العاص عقدا يتولى بمقتضاه عمرو ولاية مصر على أن يكون له خراجها طعمه بعد عطاء جندها والنفقة على مصلحتها(٢) : وينفذ عمرو العقد فقد كان يتمنى هذا الأمر ويرجوه ، بل قد فضله صراحة حين استشار ابنيه فيه فقال أحدهما : ان لك سابقة وعهدا وصحابة ورأى أن تبتعد عن هذا الأمر وتقر ببيتك ، ويقول الثانى : ان معاوية لم يسلك ما سلك الا لرأى وجده صوابا وأرى أنه مستشيرك فى أموره وعاهد اليك بأمر عظيم ، فلا تتخل عنه ، ثم يعقب هو على الشورتين فيقول : لقد أشار على الأول بما فيه نفع لآخرتى وصلاح لدينى أما أنت ـ مشيرا الى ابنه الثانى ـ فقد أشرت بما فيه صلاح دنياى وتباهه ذكرى ، ثم يحبذ رأيه ويذهب الى معاوية ناصحا له متبعا لأمره •

ثم لا يكتفى الخلفاء بأن يعهدوا بالأمر الى أمير ارتضوه ، بل يجهدون فى الوصاية اليه بما يرون ، فمعاوية وقد اطمأن به الأمر باسناد الولاية

---

(٢) الولاة ص ٣١

الى عمرو لا يتركه الا وقد أوصى اليه ، ثم يتدارك ويقول له ان لك رأيا ونفاذ بصيرة فاعمل بما يهديانك اليه ٠

وعبد العزيز بن مروان يقول لأبيه بعد أن استخلص مروان مصر وولى عليها ابنه يا أمير المؤمنين ٠ كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ فيجيبه : يا بنى ، عمهم باحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقا تصف لك مودتهم ، وادفع الى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن لك عينا على غيره وينقاد قومك اليك(٢) ، ثم يوصيه عند خروجه بما يوصى به الرؤساء مرؤوسيهم من لزوم طاعة الله والوقوف عند أمره والاهتمام بأداء الصلاة فى أوقاتها المفروضة ولا ينسى أن يبصره ببعض أصول الحكم فيقول : وأوصيك ألا تعد الناس موعدا الا أنفذته وان حملت على الأسنة ، أوصيك ألا تجعل فى شىء من الحكم حتى تستشير ، فان الله (عز وجل) لو أغاننى أحدا عن ذلك لأغنى نبيه(ص) عن ذلك بالوحى الذى يأتيه ، قال الله « عز وجل » وشاوروهم فى الأمر(٤) ٠

بمثل هذا كان يوصى الخلفاء أمراءهم ومن يعهدون اليهم مع ما توافر فيهم من صفات الكياسة والحزم ورجاحة العقل واستئهالهم لما ندبوا اليه حتى اذا تسلموا ولايتهم وأقيمت لذلك المراسم المعتادة من استقبال الناس لهم فى المسجد الجامع ، وقراءة كتاب العهد أمام القضاه والعلماء وعامة الشعب ، وقف الوالى يحمد الله ويشكره ، ويبين الرسالة التى عهدت اليه من قبل أمير المؤمنين ، ويشرح السنة التى سيسنتها والطريق التى يسير عليها فى حكم البلاد ، مما يعد بمثابة خطبه العرض أو خطاب الحكومة عند بدء توليها أمور البلاد فى وقتنا الحاضر مع رعاية الفروق ٠

وفى ذلك يخطب عتبة بن أبى سفيان والى مصر من قبل أخيه معاوية ، ويقول : يا أهل مصر — قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم الجور لكم ، وقد وليكم من أن قال فعل ، فان أبيتم درأكم بيده ، فان أبيتم درأكم بسيفه ثم جاء فى الاخر ما أدرك فى الأول ٠ ان البيعة شائعة لنا عليكم السمع ولكم العدل ، وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه ٠ فناداه المصريون من جنبات المسجد : سمعا سمعا ، فناداهم عدلا عدلا(٥) ٠

ثم ينصرف الوالى الى أعماله فيختار لشرطته من يثق به ويعرف ميله

---

(٣) الولاة ص ٤٧
(٤) الولاة ص ٤٨
(٥) الولاة ص ٣٥

اليه وتفانيه فى طاعته ويقر حكام الأقاليم أو يعزلهم ويولى من يرى أنهم أصلح لهذا الأمر دونهم ويهتم بالقضاء ، فيستنير الخاصة وذوى الفكر ويدرس حالة من يرشح لمنصبه أن لم يجد فى المتولى له الأهلية الكافية للاضطلاع به ، أو توفر فى ذهنه ونفسه من الأسباب ما يوجهه الى الوجهة الجديدة ٠

ثم ينصرف الى عمارة الأرض ، واصلاح المساجد ، وبناء الدور وغرس الكروم والنخيل ، ويختلف الى ضروب الاصلاح ومنها ما تصلح به أمور الدنيا وما تصلح به أمور الدين وما يصلح به الدين والدنيا جميعا ٠

وأذكر على سبيل المثال ذلك البيت العظيم لتعاليم الاسلام فى ولاية شرحبل حين يعمد الى الحانات فيكسرها ويريق خمورها ، ويستحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(٦) ويصل أمر الخليفة الى حنظلة بن صفوان فى ولايته بتكسير الأصنام والتماثيل فيكسرها كلها(٧) ويأمر عبد العزيز بن مروان أن تكتب الدواوين باللغة العربية بعد أن كانت تكتب بلغة القبط(٨) ويسير شرحبيل على نهجه فيزع أيدى القبط كذلك عن المواريث(٩) ٠

ويمتدح الشعراء أعمال الولاة حين تظهر آثار أيديهم ، وثمار اصلاحهم عظيمة الخير ، جزيلة النفع ويطلقون العنان لقرائحهم أن تجول ما شاء لها أن تجول وقد كان من المتعارف عليه أن يستطلع الوالى رأى الخليفة فيما يعن له من الأمور أن لم يجد المتصرف فيها عند نفسه ، فقد كتب الحر بن يوسف الى هشام بن عبد الملك : انكشف النيل عن أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن فى البناء فيها فان الناس مضطرون اليها ٠ فأذن فى بنائها قيسارية أطلق الحر عليها أمير المؤمنين بدأ بنائها فى رجب سنة ١٠٧هـ وفرغ منها سنة ١٠٨هـ(١٠) ٠ ويرى الوليد بن رفاعة أن مصر تسع وافدين اليها ، وأن وفرة خيرها وخصوبة أرضها تسمح باستقدام بعض القبائل العربية متى وافق الخليفة وحين ترد اشارة الخليفة بالموافقة يستقدم القيسية ، وينزلهم بلبيس ، ويبنى لهم بيوتا بها ، حتى بلغ عدد بيوت القيسية بها خمسة آلاف بيت(١١) ٠

---

(٦) النجوم الزاهرة ص ٢٦٤
(٧) النجوم الزاهرة ص ٧٨
(٨) النجوم الزاهرة : ولاية عبد العزيز بن مروان ٠
(٩) النجوم ص ٢٦٤
(١٠) الولاة : ص ٧٤ ، النجوم سنة ٢٨٨
(١١) الولاة والنجوم : ولاية الوليد الثانية ٠

ولابـد كـذلك من نظرة الى حالة الأمن فى مصر بوجه عام أيام الأمويين بمصر لترى مدى رضا المصريين بحكمهم ، والانصياع لما أتى الولاة من عمال ·

وسكان مصر فى ذلك الوقت كانوا فريقين : أهلها الأصليون ويدخل معهم من هاجر اليهم قبل فتح العرب لها وهجرتهم اليها · والفريق الثانى هم العرب الذين اقتحموا البلاد مع الدين الجـديد ، ونزلوا جهات مختلفة منها ، فمنهم من أحاط بمقر الولاية ونزل بحماها بالفسطاط ، ومنهم من تفرق فى الشمال والجنوب يزرعون ويتجرون ويسلكون فيما يسلك فيه أهل البلاد الأولون ·

وطبيعى أن ينتهز بعض الذين لم يرتضوا الدين الجـديد الفرصـة ليشقوا عصا الطاعة ، ويحاولوا استرجاع الأمر فى يدهم واعادة تقاليـد الحكم اليهم وتساعدهم بعض الظروف على التماس أسباب العصيان ، من أعمال الولاة أنفسهم فينتقضون عليهم حـدث ذلك مع القبط مرات ثلاث أيام ولاية الأمويين على مصر ، وفى كل مرة كان يدال الوالى فيهم وتدور الدائرة عليهم ·

ولعل من بين الأسباب التى ألجأتهم الى هـذا الانتقاض ما يلى :

١ ـ زيادة المقررات عليهم ، فقـد كتب عبـد اللـه بن الحجاب الى هشام (وكان أمير الخراج أيام ولاية الحر بن يوسف) أن أرض مصر تحتمل الزيادة ثم زاد على كل دينار قيراطا فانتقضت كورة : تنو ، وتمى وقربيط ، وطرابيـة ، وعامة الحوق الشرقى فبعث اليهم الحـر أهل الديوان فأخمـدوهم سنة ١٠٧هـ(١٢) ·

٢ ـ احلال اللغة العربية محل القبطية فى كتابة الدواوين ، وقـد بدأ ذلك أيام عبـد العزيز بن مروان ·

٣ ـ احلال كثيـر من العمال المسلمين محل القبط على الكور وغيـرها من الوظـائف ·

٤ ـ أمر حفص بن الوليـد قسمة مواريث أهل الـذمة على قسم مواريث المسلمين وكانوا قبله يقسمون بقسم أهل دينهم(١٣) ·

---

(١٢) الولاة : ص ٧٣ ، النجوم سنة ٢٨٧

(١٣) النجوم : سنة ٣٢٦

٥ - الثورة العامة على المظاهر غير الاسلامية والتى كان من آثارها تحطيم الحانات واراقة الخمور ، وتكسير التماثيل والأصنام جميعا وغير ذلك مما يدعوا اليه الدين الجديد ٠

وثورة القبط هذه ، أو ثوراتهم جميعها استطاع الولاة أن يقضوا عليها فى غير وقت طويل ولكن هناك من الثورات ما لم يقتصر خطرها على وقت حدوثها ، بل أدت الى المساس بهيبة الولاة أنفسهم ، فقد تصرف حسان بن عتاهية تصرفا غير لائق مع جنده فنقص أعطياتهم وخفض من أرزاقهم ، فثار عليه الجند ثورة تحمل هو عبئها الأول فطرد من البلاد(١٤) وتحملت الخلافة العبء الثانى فمهدت لثورة المصريين على الولاة آخر عهد الأمويين(١٥) ٠

ثم انضم الى مثل هذه الانتفاضة على الولاة انتفاضات أخرى على الخلافة نفسها حمل لواءها أمير أموى هو عمر بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان فآذن ذلك بانتهاء حكم الأمويين على مصر ، بل انقضاء خلافتهم وقد عجل بذلك فرار مروان بن محمد امام العباسيين الى مصر وقت ارتباك الوالى بمصر وانشغاله بأمر سهيل واخماد ثورته ٠

هذا العرض لحال الأمن فى مصر يوقفنا على مدى صلابة الولاة ابان قوة الخلافة وامتداد سلطانها ، بل واستمرار امتلاكهم ناصية الأمر حتى اللحظة الأخيرة ، ولولا العامل الخارجى الذى أنقض على مروان بن محمد فهرب أمامه الى مصر حتى لاحقه فيها وقضى عليه فيها على يد صالح بن على لولا هذا لاستطاع الوالى أن يقضى على ثورة سهيل كما قضى على غيرها من قبل ٠ فلمصر شأن آخر مستمد من طبيعة أهلها وسرعة موادعتهم للقرب وانصرافهم الى ما هم آخذون سبيله فى العادة ٠

وأرجو الآن أن أطرق ناحية أخرى فى هذا الموضوع فألمح الى أسباب عزل الولاة وتتشعب تلك الأسباب وتختلف وتتعدى شخص الخليفة وحالته النفسية تجاه الوالى الى شكاية من الناس أو سوء سيره عندهم ، أو مبالغة فى معاملتهم بالرفق فيستمرىء المغرضون ويعيثوا فسادا ، وتسيير الأمور الى غير الجادة ، ولا يخلوا الأمر من الدسائس تحاك والوشايا تصل الى مسامع الخليفة ٠ فنجد منه آذانا صاغية ، ونفسا مصدقة ولكنه يصدر أمر العزل

---

(١٤) النجوم : سنة ٣٣٣
(١٥) النجوم : سنة ٣٣٤/٣٣

اتقاء الشبهات وقد يكون لتولى خليفة مكان آخر ، وتداول السلطة بين شخصين مختلفى الأهواء والأمزجة - وهناك أمثلة واضحة على ذلك مستمدة من حياة الولاة على عهد الأمويين ويكفى أن أسوق هنا بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر ٠

وغنى عن التأكيد أن تداول شئون مصر بين الولاة من عهد سيدنا على كرم اللـه وجهه الى عهد معاوية بن أبى سفيان ثم من الأمويين الى عبد اللـه بن الزبير ، ثم منه الى الأمويين مره ثانية لم تجعل شئون الولاة مستقرة على حال ، فلم يأمن أحد من هؤلاء أن يكل أمر الولاية - فى مصر خاصة - لمن ليس بينه وبينه عهد ، ومن لا يطمئن الى رأيه وهواه فقد تلقى قيس بن سعد أمر العزل من سيدنا على لكيد كاده به معاوية بطريق غير مباشر وأن معاوية تخلص من الأشتر بحيلة غير كريمة لأنه لم يكن يأمن جانبه ويخشى ألا يسرع باسناد الولاية اليه فيما أراده معاوية لنفسه ، والأمر كذلك حين يسود أمر ابن الزبير وحين تنتزع منه السلطة لتعود الى الأمويين ٠

ومثال آخر لناحية من النواحى التى أسلفتها : عهد أمر الصلاة والولاية العامة على مصر بعد الوليد بن رفاعة الى عبد الرحمن بن خالد الفهمى ، فيسوء حظه ، ويغزو الروم مصر ، ويأسرون من أهلها كثيرا ويقتلون آخرين فتكتب فى صحيفة أعماله صفحة شديدة السواد ، ثم يزداد حلمه بالناس ويغرق فى اللين فيضاف الى صحيفة أعماله نقطة أخرى تكون عاملا مباشرا فى أقصائه عن الولاية ٠

وهذا مثال ثالث لناحية أخرى ، ويبين مدى استماع الخلفاء للوشاة وأثر السعاية فى عزل الولاة ٠ حدث عبيد اللـه بن سعيد بن عفير عن أبيه قال : كان حفص بن الوليد على شرط الحر بن يوسف ، فشكا ، عبيد اللـه بن الحجاب الى هشام ، فعزل الحر ، وولاه حفص بن الوليد فكتب ابن الحجاب الى هشام يقول : انك لم تعزل الحر اذ وليت حفصا فجعل هشام الاختيار الى ابن الحجاب ، فاختار عبد الملك بن رفاعة وصرف حفص يوم الأضحى ولم يمكث الا جمعتين(١٦) ٠

فاذا عرفنا أن ابن الحجاب سبب بعض المتاعب للحر ، بما كتب الى هشام عن رأيه فى زيادة الخراج وانتقاص القبط ، واضطرار الحر أن يقمع الثورة ، عرفنا أن ابن الحجاب لم ينصح الخليفة بعزل الحر ، وانما سعى

---

(١٦) الولاة : ص ٧٥

به اليه ، واذا ضمنا الى ذلك أن حفصا كان أمير الشرطة ، وأنه كان المرشح لمنصب الولاية عادة ، بدليل أن الولاة كانوا ينيبون عنهم رؤساء الشرطة فى أثناء غيبتهم ، وأن ابن الحجاب كان أمير الخراج ولا صلة بين عمله وبين ما اختصه لنفسه من الرقابة على أعمال الوالى ، وأن حفصا نفسه قد يكون أفضل سيرة وأطيب أحدوثة لو عهد اليه أمر خطير كهذا ، أقول لو أضفنا هذا كله الى بعض لعرفنا مقدار تجنى ابن الحجاب على حفصا ، وعلى سلفه معا ٠

هذه بعض أسباب عزل الولاة والآن أعرض لوظيفة أخرى لها خطرها ومكانها لاتصالها بأمر الدين وأمر الناس جميعا ألا وهى وظيفة القضاء :

٢ ـ القضاء :

حين نستقصى أخبار القضاه الذين ولوا قضاء مصر أيام الأمويين لا نجد منهم الا من يضرب بنفسه المثل فى العدل والنزاهة والالتزام بالحق وألا من يغار على تنفيذ القواعد التى فرغ من وضعها القادة السابقون ، فاذا حيل بين أحدهم وبين تنفيذ أمر اللـه ونشر العدالة العامة آثر ترك منصبه على أن يقضى قضاء يميل الى الهوى أو يجنح الى غير العدل فقد حدث يحيى بن عثمان بن صالح قال : « سمعت أبا صالح الليث يقول : انما عزل عمران بن عبد الرحمن الحسينى لأنه شهد عنده على كتاب لعبد اللـه بن عبد الملك أنه سكر فأراد حده فلم يصل الى ذلك فانصرف عن الحكم »(١٧) ٠

ولست مجاوزة الواقع اذا جزمت بأن القضاء فى مصر على عهد الأمويين كانت له حرمته المقدسة وسياجه المنيع ، وأن ما عرف الناس من مسئولياته قد جعل كثيرا ممن كان يجب أن يولوا أمره يتأوون بأنفسهم عن تحمل أعبائه الثقال ، نهيبا له واجلالا لعظيم مسئوليته فكعب بن ضنة حين يرفض ولايته فى خوف واشفاق شديدين يبنى رأيه على ما جربه بنفسه حين كان قاضيا فى الجاهلية قبل ظهور الاسلام ، ولكن كتاب أمير المؤمنين يرد على عمرو طالبا منه أن يجعل بن ضنه على القضاء ، مبينا أن عصيان أمير المؤمنين عصيان لخليفة اللـه فى الأرض ولكن عمرو يقتنع برأى ابن ضنة وقد قال له : « واللـه لا ينجينى اللـه من أمر الجاهلية ثم أعود فيها أبدا »(١٨) ويثير عليه أن يقبل ريثما يرد أمر أمير المؤمنين بقبول وساطة عمرو فى اطهار ابن ضنة ورأيه ٠

---

(١٧) القضاة : ٤

(١٨) القضاة : ٤

ويتعاون الأمراء والشعب جميعا على رعاية القضاء وتقديسه وحين يرفع الى عبد الله بن أبى السرح أمر نفر من جزام ، يقول للمختصمين ارتقوا الى القاضى عثمان بن قيس فلتجدنه مستضلعا بحمل أثقالكم(١٩) ٠

وهذان المثلان قريبا الصلة بالعهد الأموى بمصر ويشيران من قريب الى ما نحن بصدده ومسيره الولاة الأمويين أنفسهم ، وتتبع سلوكهم مع القضاة يؤيد هذا الأمر كل التأييد فلم يحدث أن واليا أستن سنة الخلاف للقضاء والاستطالة عليهم أو التعرض لقضائهم بشىء من التغيير والتبديل فيما عدا هذا الحادث الشاذ الذى سبق أن أشرنا اليه وليس عليه قياس كما يقول العلماء ذلك أن عمران بن عبد الرحمن الحسنى القاضى شهد عنده على كتاب لعبد الله بن عبد الملك الوالى أنه سكر فأراد حدة فتدخل عبد الله لمنع الحد ، فقال عمران « لا أقضى أو أقيم عليه الحد وأنصرف عن القضاء »(٢٠) ٠

ويبالغ القضاة فى احاطة مناصبهم بما يصون كرامتها وفى الالتزام الشديد بكل ما يحفظ للناس حقوقهم ويطمئنهم عليها ، ولذلك فقد كانوا يمنعون الوساطات والشفاعات مهما كان مصدرها ، ومهما كانت منزلة المتقدم بها من القاضى وقربه منه : فقد حدث عبد الله بن لهيعة أن توبه لما ولى القضاء دعا امرأته « عفيرة » فقال : يا أم محمد أى صاحب كنت لك ؟ قالت خير صاحب وأكرم ٠ قال فاسمعى : لا تعرضين لى فى شىء من القضاء ولا تذكرينى بخصم ولا تسأليني عن حكومة فان فعلت شيئا من هذا فأنت طالق ٠ فأما أن تقيمى مكرمة واما أن تذهبى ذميمة » ٠ فلا تكتفى أم محمد بالاستماع والاستجابة بل تبعد كل شبهة وتحذر غاية الحذر ويحدث الراوى عن ذلك فيقول : فانتقلت عنه فلم تكن ثانية الا فى الشهر أو الشهرين وان كانت لترى دوابة قد احتاجت الى الماء فلا تأمر بها أن تمد خوفا من أن يدخل عليه فى يمينه شىء(٢١) فيسد ثوبه هذا الباب الذى يظن سهولة الولوج منه الى ذمة القاضى ، والتأثير عليه بوساطته ، ولا يوجد لخصم مطعنا أو لريبة مظنة ٠ وهكذا نجد القاضى قد توافر فيه ما يجب أن يتحلى به من صفات التقى والوروع والنزاهة وصدق طوية وعفة طعمه ، ويقول ابن خزامر القاضى : ما أقدمت على القضاء شيئا الا جوزتين ، فلما صرفت تصدقت بها وتشرئب نفس غوث بن سليمان راوى هذا الخبر عنه الى معرفة مصدرهما ويقول : وددت أنى علمت من أى وجه صارت اليه ؟

---

(١٩) القضاه : ٤
(٢٠) القضاه : ٥٢٥
(٢١) الولاة : ٣٤٣

هـذا كان بالاضافة الى علم واسع والتزام دقيق بأمور الدين وحسـن تصرف ودقة اجتهاد مع تواضع جم ، وخلق عظيم : حـدث عبيـد اللـه بن أبى جعفر أن عباس بن سعيد دعاه مروان فقال له : أعلمت الفرائض ؟ قال : لا ، قال أفتجمع القـرآن ؟ قال : لا • قال فكيف تقضى ؟ قال : ما علمت قضيت به وما جهلت سألت عنه • قال له أقضى بهـذا ، ثم أن مروان سأله بعـد ذلك عن فريضة فأصاب وسأله عن مسألة فى الطلاق فأصاب وسأله عن شىء من القـرآن فأصاب ، فقال مروان : عبـا داللـه • ألا تعجبون من عباس زعم أنه لا يحسن الفرائض والقـرآن ، ولكن المؤمن هـدم نفسه(٢٢) •

صلة القاضى بالخليفة والوالى :

بينت من قبل أن القاضى كان يسـتمد ولايته من الخليفة أحيانا ومن الوالى أكثر الأوقات ، كما بينت أن هـذين الشخصين وحـدهما هما اللـذان كان لهما حق استلاب الولاية منه وليست صلة القاضى بهما على هـذا النحو الادارى البحت ، فمنصبه خطير وأمانته تستدعى الرجوع الى من يستمد منه الولاية فيما يعرض له من معضلات لا يرى أن يستقل وحـده باصـدار رأيه فيها وتحمل تبعاتها ، ومن ثم فان القاضى كان كثيرا ما يرجع الى الخليفة يبادله الرأى والمشورة ويطلب الفتيا بما للخليفة من الولاية العامة على المسلمين جميعا ، وما يملك من سلطان وما يجتمع فى مجاله من علماء وفقهاء وما يرد اليه من الأمصار من فتاوى وآراء تمكنه من أن يصـدر حكمـه وأن ينفـذ قضاءه ولا يجـد القاضى فى ذلك حرجا عليه ، كما لا يجـد الخليفة فى رجوع القاضى مطعنا فى علمه أو نقصا فى اطلاعه أو قلة فى درايته ، أو عجـزا عن التصرف المناسب فيما يصادفه من مشكلات ، بل يرحب بذلك كل الترحيب ، وتزيد منزلة القاضى لديه •

وقـد تدعو أمانة القاضى وفراسته ، وسـعة علمه ، الخليفـة الى أن يرجع اليه فى بعض قضايا الدين يسأله رأيه ويستفتيه فيها فان أصـابت فتيا القاضى الحجة ولزمت الصواب واتجهت الى الحق والانصاف سر لهـا الخليفة وأظهر رضاه بها ونشرها فى الامصار يحمل القضاة على العمل بها والسير على مقتضاها • وكتاب القضاة للكنـدى ، وكتب أخرى غيره ، تذكر كثيرا من مسائل تداول فيها الخليفة والقاضى واستفتى فيها أحـدهما الآخـر •

حـدث توبة بن غفران أن عياضا كتب الى عمر بن عبـد العزيز فى صبى اقترع حبيه بأصبعه فكتب اليه عمر أنه لم يبلغنى فى هـذا شىء ، وقـد

---

(٢٢) القضاة : ص ١٢

جعلته لك فاقضى فيه برأيك فقضى على الغلام بخمسين دينار(٢٣) وحدث الليث أن عمر بن عبد العزيز كتب - بسم الله الرحمن الرحيم · من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عياض بن عبيد الله · سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، أما بعد ·· فانك كتبت تستأمرنى فى ثلاثة نفر بلغك من شأنهم ما لم يكن لك يد فى رفعهم الى ·· الخ(٢٤) · وهكذا تتأكد الصلة العلمية والروحية جميعا وهى أقوى من صلات الادارة وأعود بالنفع وأدر للخير ·

مكان القضاء ووقته :

لم يكن للقاضى مجلس خاص تعده الولاية وتحوطه بمظاهر خاصة تجلب له الرهبة أو تضفى عليه نوعا مستكرها من التقديس ، فالقضاء رهيب فى ذاته يخشى منصبه ، وتهاب مكانته ولا يحتاج الى مزيد مستجلب لا يفيده ، بل قد يسىء اليه وانما تحدث الرواة أن القاضى كان يتعرض للقضاء فى منزله أحيانا ، أو فى المسجد الجامع ويفيد اليه المتخاصمون يعرضون قضاياهم ويحكمونه فيما يشجر بينهم ، ويحدثون أيضا أن وقته كان للمتخاصمين جميعا ، فحيثما جلس القاضى ووفد اليه الخصوم استمع اليهم وقضى بينهم ، وقالوا : كان خير بن نعيم يقضى فى المسجد بين المسلمين ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج فيقضى بين النصارى · وحدث خلف بن ربيعة عن أبيه عن جده الوليد بن سليمان أن خير بن نعيم كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره فكان يجلس فيه فيسمع ما يجرى بين الخصمين من الكلام(٢٥) ولكن أين كان يحفظ القاضى سجلاته ؟ أغلب الظن أنه كان يحفظها لديه ، ويسلمها السلف الى الخلف وأرجح ذلك نظرا لقلة تلك السجلات ، فقد ورد خبرا يفيد أن ورثة تخاصموا الى سليم بن عنز النجيبى ، فقضى بينهم ثم اختلفوا فقضى بينهم وكتب بقضائه سجلات استشهد عليه شيوخ الجند وحفظه عنده وما دام القاضى لا يلجأ الى السجلات الا عند الضرورة الملحة فالسجلات اذا قليلة لا تستدعى ديوانا خاصا تحفظ فيه ويقوم عليه الحفظة المختصمون(٢٦) وحدثوا كذلك عن عبد الرحمن بن معاوية أنه أول قاض نظر فى أموال اليتامى وضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتابا وكان عنده(٢٧) ·

---

(٢٣) القضاة : ٢٩
(٢٤) القضاة : ٣١
(٢٥) القضاة : ٤٤
(٢٦) القضاة : ١٠٠
(٢٧) القضاة : ٢٢

وهــذا نالخبران ان كانا لا يؤكــدان ما ذكرته من أن القاضى كان يحفظ لديه سجلاته فيهما لا يثبتان غيره ، وسيظل هــذا الرأى حتى أعثــر على ما يخالفه فى غير المصادر التى رجعت اليها فى هــذا البحث وهى غير قليلة ٠

بعض الاصلاحات التى استحدثها القضاة :

من الفقرة السابقة يتضح لنا أن القضاة فى مصر علىعهـد الأمويين استحدثوا أمرين جــديدين ٠ لم يكونا مألوفين من قبل وأولهما أن يكتبوا سجلا بقضائهم يشهدون عليه بعض الرجال المعروفين حتى يكونوا حجــة على الخصوم الذين يلج بهم العناد ويدفعهم اللجاج الى استنتاج الأحكــام السابقة وعــدم الاذعان اليها ، وان فى أعــداد سجلات تكتب فيها أحكام القضاة تذكيرا للقاضى نفسه وتنبيها له الى ما قــد سبق أن قضى به وحكم خاصة اذا قيــد مع الحكم ظروف الدعوى وأقوال الخصمين والشهود جميعا ، ولست أدعى أن هــذه السنة أصبحت ملزمة لهم فى جميع القضايا ، اذ ليس عنــدى من النصوص ما يسمح لى بذلك ولكن غاية ما أرجحه انهم لزموا ذلك فى بعض القضايا التى يغلب على ظن القاضى أن احاجة تقضى بها كأن يرى من الخصم عنادا أو لجاجا أو يتعــدد الخصوم حتى لتشيع بينهم الدعوى ويخشى على الحق أن يهــدر وعلى رأى القضاء « أن يتناسى » والخبر المروى فى الفترة السابقة يحتمل كل ما قلته هنا فانه ينص على أن : « اختصم ورثة الى سليم بن عنز النجيبى فقضى بينهم ثم اختلفوا فقضى بينهم وكتب لقضائه سجلا أشهد عليه شيوخ الجنــد » وهو أول قاضى سجل سجلا بقضائه فى الاسلام(٢٨) ولا بد أن القضايا التى تستلزم سجلات قــد كثرت وأن أمورا أخرى قضائية قــد ابتدعت حتى يضطر القضاة الى اتخاذ الكتاب والاكثار منهم ليستطيعوا النهوض بأعمالهم المتزايدة ، وقــد أتاح ذلك الفرصة لنفر من الكتاب أن يقــدموا بعضا على بعض لقاء مكافأة أو رشوة مما أدى الى ضجر المتقاضين مما استحدث الكتاب من البــدع المنكرة فيجأرون بالشكوى ويضيقون بها ويصل أمر كتاب أحــد القضاة الى الخليفة هشام فينفــذ أمره الى الوالى بعزله واقصائه واختيار قاض أمين نزيه يصلح لقضاء الجند ٠

والأمر الثانى الذى لاحظناه معا فى الفقرة السابقة هو المحافظة على أموال اليتامى والسهر على رعايتها بما يعود على اليتيم بالنفع ، وهــذا يقابله فى قضائنا الحالى ٠٠ المجالس الحسبية فى مصر ٠ وقــد قضى النظام المستحدث أن يوكل أمر أموال اليتامى الى شيوخ القبائل بعــد الاشهاد عليهم ولابد أنه كان يشترط عليهم بعض الشروط التى تكفل رعاية ما استحفظوا عليه ٠ والقــرآن الكريم قــد وضع عليهم بعض أسس القيمة لرعاية تلك الأموال

---

(٢٨) القضــاة : ١٠

فلا يتوقع أن يستحـدث شيء يزيد على ما فى كتاب الله من الاحكام ، ولكن المستحـدث هو النظام الذى يكفل للقاضى الهيمنة على أموال اليتامى والاطمئنان على سلامتها وتنميتها .

وأمر ثالث هام أشير اليه فى ايجاز ، ذلك هو الاحباس (الأوقاف) فقـد خاف عليها توبة بن نمر أن يسلك بها ما يغرر لها ، أو يغرى مرور الزمن القائمين عليها أن يتوارثوها ويمنعوا بذلك صرفها الى مستحقيها حدث ابن لهيعة قال : أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر فى زمن هشام وانما كانت الأحباس فى أيدى أهلها وفى أيدى أوصيائهم فلما كان توبة قال : ما أرى مرجع هـذه الصـدقات الا الى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدى عليها حفظا لها من الالتواء والتوارث فلم يمت توبة حتى صار للاحباس ديوان عظيم(٢٩) .

والأمثلة الثلاثة السابقة توقفنا على ما كان يتمتع به لاقضاة من نضج عظيم وتصرف حسن يؤهلهم لـما يسـدى اليهم من تقـدير واعظام .

مرتب القاضى :

من المعروف أن مسألة المكافأة على القضاء والتـدريب والفتيا وغيرها من الوظائف التى تتصل بأمور الدين تجـد خلافا كبيرا بين الأئمة ، فهى عنـد بعضهم مهام يجب على من يلمون بدقائقها أن يقـدموا جهودهم حسبة للـه وطاعة لأولى الأمر وخـدمة لجمهور المسلمين بينما يرى جمهور الأئمـة أن ذلك قـد ينزل المتولين لها منزلة غير لائقة تذهب بمـا لهم من كرامة وتضـع من أقـدارهم اذ تلجئهـم الى التعـرض للنـاس وتقبـل هباتهم ، ومن ثم ووجهوا بيت المـال أن يتكفـل بأرزاقهم وأرزاق من يعولون حفظـا لكرامتهم من أن تمس وهكـذا المهام ألا تجـد من يشغلها ويرعى أمرها ويسهر على شئونها ، والى هـذا الرأى مال ذوو الأمر فجعلوا مرتب القضاة فى بيت المـال يتقاضونه مقـدما ، حتى يطمئنوا الى أرزاقهم ولكن بعض الخلفاء كان قـد بلغ بهم الزهـد مبلغـا عظيما ، فقـد تحـدث الرواة أن القضـاة على خـلافة عمـر بن عبـد العـزيز كانوا لا يتقاضـون أجـرا وكان بعضهم يتجـرون فى أوقات فراغهـم ليحصـلوا على أقواتهـم وأقـوات عيـالهم . حـدث سهيل بن على قال : كنت ألازم خير بن نعيم وأجاله وأنا حـديث السن وكنت أراه يتجر فى الزيت ، فقلت له : وأنت أيضا تتجر ؟ فضرب بيده على كتفى ثم قال : انتظر حتى تجوع ببطن غيرك . قلت فى نفسى : كيف

---

(٢٩) القضاة : ٤٠

يجوع الرجل ببطن غيره ؟ فلما ابتليت بالعيال اذ أنا أجوع ببطونهم(٣٠) نقرأ هـذا الخبر ونقف عنـده • ونضع بجانبه خبرا ثانيا على شاكلته ولو أننا قـد سقناه من قبل وهو أن القاضى ابن خذامر كان يقول : ما أقوت على القضاة شيئا الا جوزتين ، فلما صرفت تصـدقت بهما •

ولعل هـذين القاضيين كانا من معتنقى أول الرأيين الذين أشرت اليهما فى بدء هـذه الفقرة أو لعلهما كانا كثيرى العيال فكانت لا تكفيهما مرتبات المـال فيتجرا حتى يكفيهما وابن خـذامر كان يقصـد أنه لم يضمن غير بيت المـال نفعا ما الا الجوزتين وان كان النص عاما يشمل أرزاق بيت المـال ، وهـدايا النـاس •

ولكن يبـدو أن بعض القضاة واتتهم الحظوظ وبسـط لهم فى الرزق فعبـد الرحمن بن حجرة كان راتبه على القضاء مائتى دينار فى السنة كما كان له راتب عن كل عمل آخر تولاه مع القضاء حتى بلغ راتبه ألف دينـار فى السنة(٣١) وألف دينار كان يتقاضاها موظف واحـد فى السنة أجر كبير من غير شك وان كان أجر أعمال متعـددة • ويهمنا من هـذا كله أجر القضاة وحـده فهو مائتا دينار فى السنة وهو معقول فى ظروف الولايات الاسـلامية فى عهـد جـدة الدين وقوة وثوق معتنقيه الأول •

وهـذا الراتب هو الذى قـدرته الولاية للقضاة فى اغلب الظن وسأذكر وثيقة عثر عليها فى ملفات الأمويين تؤكـد تعيين هـذا الراتب للقضاة ، هـذا نصها :

براءة زمن مروان بن محمـد : بسم اللـه الرحمن الرحيم من عيسى بن أبى عطاء (أمير الخراج) الى خازن بيت المـال •• فأعطوا عبـد الرحمن بن سالم القاضى رزقه الشهرى فى ربيع الأول سنة ١٣١هـ عشرين دينـارا واكتبوا بذلك البراءة • كتب يوم الأربعاء لليلة خلاف ربيع أول سنة ١٣١هـ ١٠•هـ(٣٢) •

اذا فقـد كان للقضاة مرتبات يتقاضونها من بيت المـال والأمر يبلغ مائتى دينار فى السنة أو عشرين دينارا فى الشهر تقريبـا وهو أمر يجب ألا تقصر فيه الولاية وألا يتنازل عنه القضاة ، بل يجب أن يقبضـوه وأن يقبضوه مقـدما كما تثبت البراءة الآنفة الذكر •

---

(٣٠) الولاة : سنة ٣٣٩

(٣١) القضـاة : ١٥

(٣٢) القضـاه : ١٥

وقد كنت أود أن أعرض لعمل خاص يتولاه بعض القضاة ولكن بعهد خاص ، مثل قضاة المظالم والقصاص ولكنى أرى أنهما من أعمال القضاء على كل حال ، مع قليل من الملابسات والاختصاصات ليست بذات حدود واسعة تجعل لهما طابعا لا يشترك مع القضاء العام ٠

ومن ثم أرى أن أكتفى بما ذكرته عن القضاء وما يسرى عليه من قيود ويتقيد به من رسوم يسرى على من يتولون القصاص والمظالم جميعا ٠ وكنت كذلك أود أن أشير الى أن بعض القضاة جمعوا الى القضاء وظائف أخرى مثل الشرطة أو بيت المال والقصاص وكان من يجمع بين تلك الأعمال يجمع بين رواتبها فعبد الله بن حجيرة كان ينقد على القضاء مائتى دينار فى السنة وعلى القصاص مائتى دينار ، وعلى بيت المال مائتى دينار ، وكان له الى ذلك عطاء يبلغ مائتى دينار ، وجائزة قدرها مائتا دينار ، فيبلغ جميع ما يتقاضاه ألف دينار فى السنة واسناد أعمال عدة الى شخص واحد أمر مألوف لا يحتاج الى تعليق كثير خاصة اذا كان هذا الاسناد الى رجال موثوق بأمانتهم وقدرتهم على النهوض بهذه الأعمال جميعها فى حسن أداء وكمال تأديه ، ولا يفوتنى أن أذكر أن قصر المدة التى تجمع فيها أعمال عدة الى شخص واحد يبيح هذا الاسناد بل يساعد على فهمه والاطمئنان اليه ٠

واذا رجعنا الى ماسبق أن ذكرته عن مصدر العهد الى القضاء أو الولاة والأسباب التى قد تلم ، وتدعو الى عزل الولاة والعهد الى غيرهم - نستطيع أن نستغنى عن اعادة ذكر بعض هذه الأسباب بالنسبة للقضاة - حتى لا نقع فى تكرار لا يفيد ، وكل ما أريد أن أقوله فى هذا الصدد أنه يجب مراعاة الفرق بين طبيعة عمل الوالى وعمل القاضى ٠ وتعدد مصادر استمداد السلطة بالنسبة للقاضى اذ يعنينا كل هذا على الاكتفاء تماما بما سبق ايراده فى هذا الموضوع ٠

٣ - ولاية الخراج :

كان المتولى لولاية الخراج قابضا على تصاريف الشئون المالية فى الولاية كلها فهو فى منزلة وزير المالية فى عهدنا الحاضر وليست مهامه قاصرة على جمع الخراج وحده كما يبدو اذ يصعب أن نفصل بين جمع الخراج وملء خزانة الولاية ، وبين الهيمنة ولو من بعد على ما يجرى فى الولاية مما يستدعى الرجوع فيه الى عامل الخراج ٠ ولو أن هذه الوظيفة كانت تلزم شاغليها ألا يتعدوا قبض المال وجمعه فى الخزائن ما اهتم الخلفاء به الى حد جعلهم يتقبلون مصير هذه الوظيفة بين أيد كثيرة ما دامت مهمة المتولى لها لا تعدو

حد الجمع والحفظ وانما أميل الى هذا الذى ذهبت اليه لما رأيت من شدة اهتمام الخلفاء بها واختيار من يشغلها ممن يضمن ولاؤه للخلافة وانسجامه مع الولاة وتولى الوظائف الأخرى وأحيانا يكل الخليفة أمر الخراج المتولى أمر الصلاة ضمانا لما يبغيه من عدم الفرقة وتوفر الانسجام الى المغانم الكثيرة التى تنتظر أميرها مما يجعله محط الأنظار وموضع الاهتمام ·

ولعل ما ينتظر متولى الخراج من خير ونعمة وفيرة السبل جعل الخليفة يرضى بها الولاة أحيانا حتى يعوضهم عن بعض ما يتوقعون اذ هم اتجهوا وجهة أخرى يريد الخليفة ألا يتجهوا اليها أو يفوته الانتفاع بجهودهم ونتاج أفكارهم وثمرات تجاربهم وهذا نفسه هو الذى حمل معاوية على أن يكل أمر الخراج الى عمرو بن العاص أول عهد أشراف الأمويين على مصر بل أن النصوص الصريحة توضح فى بيان وعدم لبس هذا الذى قدمت ، فعمرو بن العاص حين يميل الى معاوية ويفضل الانضواء تحت علمه يجعل لذلك شرطا - ولاية مصر ، وأن يكون خراجها طعمه له ولا ولادة استرضاء ومكافأة عما أخذ به نفسه من الانصراف عن نصره على والتزامه جانب خصم معاوية - فيضيفها اليه معاوية ·

ولعلى غير محتاج الى التنبيه على أن متولى الخراج يستمد سلطانه من الخليفة مباشرة بتوجيه أمر الصرف عنه ، للظروف الكثيرة التى تحيط بهذه الوظيفة مما قدمت الاشارة اليه ·

أما مقدار الخراج وموعد جبايته فمن الوضوح بمكان ، فالدولة الاسلامية والقائمون على شئونها حفظه على الدين قوامون على رعايته فلا ننتظر منهم أن يتجاوزوا حدود ما رسم الدين فى هذا الموضوع ، وحين تزين نفس أمير الخراج أن يسير سيرة غيرها فلا يجب أن يخطو اليها حتى يستصدر أمرا صريحا من الخليفة باقرار ما يريد الذهاب اليه ، وحينئذ يتحمل أمير الخراج والوالى العام والولاية كلها والخليفة الثمن غالبا اذ لا تؤمن عاقبة الاقدام عليه ·

فان عبد الله بن الحجاب يكتب الى الخليفة هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة ، ويزيد على كل دينار قيراطا تنتقص الكسور ويضطر الوالى الحر بن يوسف التدخل ليعيد الأمن الى نصابه(٣٣) ويغضب عمر بن عبد العزيز حين يكتب سليمان بن عبد الملك الى عامل الخراج يقول أحلب الدر حتى ينقطع وأحلب الدم حتى ينعدم(٣٤) ولا يتمالك نفسه

---

(٣٣) الولاة : ٧٤

(٣٤) النجوم الزاهرة : جـ ١ ص ٢٥٧

حين يمتدح سليمان عمل أسامة في حضرته ، قائلا : هذا أسامة لا يرتشى دينار ولا درهما فيقول عمر : انى أدلك عن من هو شر منه ولا يرتشى . قال سليمان من هو ؟ فأجاب عمر : ابليس ولا يكتفى بذلك بل يسرع عمر الى اقصاء أسامة بعد موت سليمان وتسلمه زمام الخلافة وقبل أن يدفن سليمان(٣٥) .

وقد حدد عمر بن الخطاب بمشهد من الصحابة رضوان الله عليهم مقادير الخراج تحديدا صريحا لم يدع معه مجالا لرأى أو متنافسا لجدل : وألخص هذه المقادير مجملة مستمدة من كتب فيما يلى :

أراضي العشر ، وأراضي الخراج :

يوخذ العشر من الخارج من أراضى العرب ، وهى ما بين العزيب(٣٦) الى أقصى حجر باليمن بمهرة(٣٧) الى حد الشام وكذا البصرة وكل ما أسلم أهله أو فتح عنوة وقسم بين الغانمين .

وما عدا ما سبق تحديده من الأرض يؤخذ عنه الخراج : وهو ما بين العزيب الى عقبة حلوان ومن العلث(٣٨) الى عبادان(٣٩) وكذا كل ما فتح عنوة وأقر أهله عليه أو صحوا لحوا ، سوى مكة .

والخراج نوعان : خراج مقاسمة فيتعلق بالخارج كالعشر ويرجع تقديره الى الوالى بحيث لا يزيد على النصف ولا حد لنقصه وبحيث لا يزاد بعد التقدير الأول .

وخراج وظيفة فيتعلق بالأرض : ويؤخذ على كل جريب(٤٠) صالح الزرع صاع من بر أو شعير ودرهم ولجريب الرطبة خمسة دراهم (كالقثاء

---

(٣٥) النجوم الزاهرة : جـ ١ ص ٢٥٨

(٣٦) العزيب : تصغير عزب : ماء لتميم .

(٣٧) مهرة : اسم لرجل أو اسم قبيلة تنسب اليه الابل المهربة وتسكن الهاء أحيانا .

(٣٨) العلث : بفتح فسكون : قرية موقوفة على العلوية وهو أول العراق شرق دجلة .

(٣٩) عبادان : حصن صغير على شط البحر وفى المثل : ليس وراء عبادان قرية .

(٤٠) ستون ذراعا بذراع كسرى سبع قبضات وفى مصر يعتبر الفدان .

والخيار) ولجريب الكرم أو النخل المتصل عشرة دراهم (نظرا لقلة المؤنة) لما سوى ذلك ما تطيق ونصف الخراج غاية الطاقة وان لم تسطق ما وظف نقص ولا يزاد وان طاقت ·

ويضاف الى خرا جالأرض ضريبة الرءوس وتؤخذ من أهل الكتاب على الظاهر · الغنى ثمانية وأربعون درهما فى كل شهر ٤ دراهم ، وعلى المتوسط نصفها فى كل شهر درهمان ، وعلى الفقير القادر على الكسب ربعها فى كل شهر درهم ، ويعفى غير القادر على الكسب كما يعفى الشيوخ والأطفال والنساء ·

والتجار الذين يتنقلون من جهة الى أخرى يؤخذ منهم ما عرف بعد المكوس دينار عن كل أربعين دينار من المسلمين ودينار عن كل عشرين دينار من أهل الكتاب ·

فمقادير الخراج اذن وضع الدين أساسها وأوضح معالمها ، وما عمل والى الخراج الا تنظيم جمعها وبعث العمال فى الكور والأمصار ليراقبوا ما كلفوا القيام به ولا بد أن عددهم يتناسب واتساع الرقعة وعدد القطان وقد حكى ابن لهيعة أن المرتبين لذلك كانوا مائة ألف وعشرين رجل سبعون ألفا لصعيد مصر وخمسون ألفا بالوجه البحرى (أسفل الأرض)(٤١) وهذا عدد يتفق كثيرا وطبيعة العمل وخطورته ·

ووقت الجباية يبدأ عند بدء الحول ، وان كانت الجباية تستمر طوله الى ما قبل نهايته بأيام حتى لا تسقط فى بعض الأحوال · وأغلب الأمر أن العادة جرت أن يقرر ذلك حين وفاء النيل ويعلم مقدار زيادته والأراضى التى عمها أو انحسر عنها فلكل ذلك أثره فى تقدير الخراج ، ويبين هذا مما ذكره أبو المحاسن عن السعودى ·· فان انتهت الزيادة الى ست عشرة ذراعا ففيه تمام الخراج(٤٢) ، وفى سبع عشرة ذراعا كفايتها ورى جميع أرضها ،واذا زاد على السبع عشرة وبلغ الثمان عشرة ذراعا وأغلبها استبحر من أرض مصر نحو الربع وفى ذلك ضرر بعض الضياع لما ذكرناه من وجة الاستبحار وغير ذلك(٤٣) ·

ونحتاج الى ذكر قليل من مقياس النيل لا يبعد بنا كثيرا عن البحث ويذكر المقريزى روايات وأخبار يمكن تلخيصها فى أن أسامة بن يزيد بنى

---

(٤١) النجوم : ٥٧
(٤٢) خطط المقريز ى: ٩٥
(٤٣) خطط : ٥٧

مقياس الجزيرة فى خلافة الوليـد بن عبـد المـلك وكان أكبر المقاييس التى بنيت قبل ، وأنه استمر القياس عليه حتى هـدمه المـاء ، فبنى المـأمون غيره بأسفل الأرض وأظن أن ايراد احـدى الروايات التى ذكرها المقريزى لا يخلوا من الطرافة وسأجترىء بها عن ذكر تفصيلات أخرى(٤٤) ٠

قال ابن عبـد الحكم : أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السـلام وضع مقياسا بمنف ثم وضعت العجوز دلوكة أبينة زيا ، وهى صاحبة حفظا بعجوز مقياسا بانصنا وهو صغير الزرع ومقياسا بأخميم ووضع عبـد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان (وكانت محله) وهو صغير ووضع أسامة ابن زيد التنوخى فى خلافة الوليـد مقياسا بالجزيرة وهى أكبرها(٤٥) وذكر هـذه الرواية يغنينا عن الاشارة الى المقاييس الأخرى المتعـددة التى كانت تقام على النيل من جنوبه الى شماله ومدى اهتمام المصريين منـذ القـدم بضبط قياس النيل والوقوف على نقصه أو زيادته ٠

ويبدو أن أسامة التنوخى عرف واجبه حق المعرفة ، فراقب النيل وبنى مقياسه ونظم جباية الخراج تنظيما يكفل ضمان استيفاء بيت المـال حقـه حتى لا يضيع على المسلمين من ذلك شىء وحتى يقوم الولاية بالاتفاق على المصالح العامة من اصلاح أرض وبناء جسور وحفر ترع ، وبناء المسـاجد والبرور والقيساريات وغيرها ومن أهم ما يضاف الى أسامة كـذلك بناؤه بيت المـال ومن خلافه سليمان بن عبـد المـلك كما ترجح الروايات ذلك(٤٦) ٠

وكان الواجب أن أعرض للحالة المـالية فى الولاية أيام الأمويين مادمنا بصـدد الخراج وجمعه ومتوليه ومصارفه ولكن ذلك ربما يصرفنا عما يجب أن يقتصر عليه هـذا البحث ، غير أنى أشير الى ظاهرة واحـدة ـ بسـبب ما يعانيه العالم الآن ـ فقـد حـدث أن أصابت البلاد موجة غلاء على عهـد عبـد اللـه بن عبـد المـلك ، وضجر الناس منها أشـد الضجر وبلغ بهم الضيق والكـدر أن تشاءموا من ولاية عبـد اللـه ابن عبـد المـلك وهجاه الهاجون ـ والدين لا يقر التشاؤم ٠٠

تلك هى المكاييل التى كانت مستعملة ابان حكم الأمويين ، وكانت هذه المكاييل الأردب والكيلة والويبـة والقـدح ، وقـد حاول أميـر المؤمنين أن يفوض(٤٧) المـدى فلاقى من ذلك صعوبة شـديدة أغلب الظن أنها انتهت

---

(٤٤) خطط : ٥٧

(٤٥) يمكننى أن أكتب لك بعض ما كتب عن الجسور وغيرها اذا وجدت ضرورة لذلك ٠

(٤٦) النجوم : ٨٠ والخطط : ٥٨

(٤٧) المـدى كقفل مكيال يسع تسعة عشر صاعا وهو غير المـد ٠ المصباح المنير ٠

برفضه فقد أرسله الى الوليد بن رفاعة الوالى فأمر ان يطاف به على القبائل فرضى به بعض ، حتى اذا مر به على المعافر ، يرفضه عبد الرحمن بن حويل بن ناشرة والمعافرى ويضرب به الحجر فيكسره ويقول أن لنا ويبة واردبا قد عرفناهما ولسنا نحتاج الى هذا ٠

وبعد ٠٠

فلعلى قد استطعت فى هذا البحث ان أجلو الناحية الادارية أيام حكم الأمويين لمصر فى الفترة المحصورة بين سنة ٣٨هـ حين قدم الى مصر عمرو بن العاص فى ولايته الثانية معهود اليه من معاوية بن أبى سفيان وقد استبد بالأمر سالبا له من الخليفة الشرعى « على » وبين نهاية حكم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين الذى وفد الى مصر فارا من وجه العباسيين الزاحفين حتى تم لهم الأمر ونودى لهم بالخلافة فى جميع الرقاع الأساسية سنة ١٣٢هـ ٠

المصـــادر

١ ـ سنن أبى داود ٠

٢ ـ سنن الترمزى ٠

٣ ـ الولاة والقضاء للكنــدى ٠

٤ ـ القضاء للكنــدى (الواقع أنه جزء من الكتاب السابق) ٠

٥ ـ النجوم الزهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ٠

٦ ـ البيان والتبيين للجاحظ ٠

٧ ـ المبسوط للشرخى جـ ١٦

٨ ـ أعلام المعوقين لابن القيم ٠

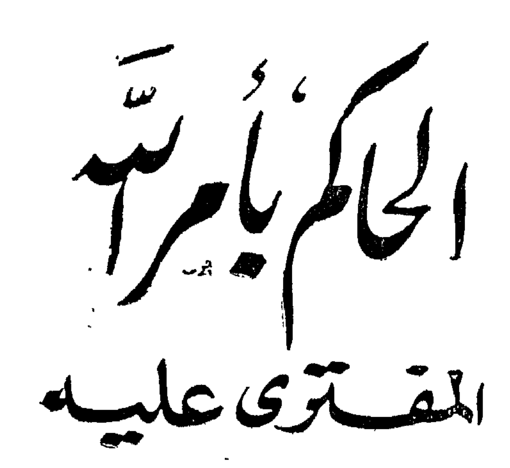
٩ ـ الأحكام السلطانية للماوردى ٠

١٠ـ القضاء فى مصر ـ الفتح الاسلامى الى العصر الحاضر : للأستاذ عطية مشرفة ٠

١١ـ الكامل لابن الاثيــر ٠

١٢ـ المواعظ والاعتبار للمقريزى ٠





تـأليف

الدكتورة سوسن محمد نصر
كلية التربية - بنهـا
جامعة الزقازيق

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م



كلمـة حق

الحضارة فى عصر من العصور هى المـرآة التى يرى فيها اللاحقون حياة السابقين الأولين ولكل حضارة نبع خاص ومنهل معين • والحضارات دائما تصور مدى تقـدم جيل ما وما وصل اليه من مكان وعزة •

وتكون هـذه المكانة دائما وأبدا مستندة الى فكر بشرى ناضج ناهض مفكر • ولكن الحضارة الاسلامية فى حقيقتها تستند أساسا وكلية الى الوحى الالهى الذى أنزله الله على قلب محمـد المصـطفى صلوات الله عليـه ولذا فان حضارة الاسلامية فى فجر الاسلام بددت كل الحضارات المعاصرة لهـا وطغت عليها بل ومحتها من الوجود ومن الفكر البشرى كله لأن هـذا الرعيل من البشر كان قـد تفهم هـذه القيم الاسلامية فهما عميقا حقيقيا بعيـدا عن الزيف والغرض ولـذا فان الامبراطورية الاسلامية امتـدت شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بأيسر السبل وبدون ارهاق لأتباع محمـد عليه السلام • ان اشراقة فجر الاسلام كانت تطلع كل يوم على قطعة أرض من بقاع المعمورة ، ولقـد انتشر الاسلام انتشارا واسعا عنـد ما سبقت مبادئه الى كل مكان • وما كانت تلك المبـادىء القيمة الا العـدل والمساواة والحرية الحقيقية التى تتمثـل فى قوله عز وجل « لا اكراه فى الدين قـد تبين الرشـد من الغى » •

(صدق اللـه العظيم)

ومن هــذا المنطلق العميق القوى بعيــد الجــذور نبتت شجرة الاسلام وأورقت وأثمرت وأينعت ثمارها واستظل النـاس جميعا مسلمين كانوا أو غير ذلك بظلالها الوارفة ٠

ولقــد عمت الحضارة الاسلامية بقاع المعمورة كلها وبرز محيطها كثير من علماء المسلمين ٠

ولمع فى سمائها سيطهم حتى أتوا بما لم يستطعه الأوائل فكانوا أقطاب العالم ومعلميــه ٠

وهــذا يرجع الى فهم المسلم لتعاليم الاســلام التى تدعو الى العلم والسعى فى تحصيل أكبر قــدر منــه مهما نأت أماكنه أو بعــدت ٠ بذلك سطعت شمس الحضارة الاسلامية على العالم أجمع فبــددت ظلمة الجهل ٠

وعنــدما ملأ الغرور والخيلاء نفس الانسان المسلم وبعــد عن تعــاليم هــذا الدين وزلت قــدمه خبا نجمه وانكسرت شوكته وضاعت هيبته وباء بغضب من اللــه وولى أمره من لا يخاف اللــه ولا يرحمه ٠

د٠ سوسن محمــد نصر

تقــدير وعرفان

يقول اللــه عز وجل : شهد اللــه أنه لا اله الا هو والملائكة وألو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » ، ويقول سبحانه وتعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقــد أوتى خيرا كثيرا » ويقول جل من قائل : « وفوق كل ذى علم عليم » .

(صــدق اللــه العظيم)

وبعــد .. فأود أن أكون من بين من يعترف بالفضل لذوى الفضل ومن يؤتى كل ذى حق حقه . وفى مستهل كلامى هــذا اود أن أتقــدم بالشكر والتقــدير لمن أضاء لى نور المعرفة وأنا أضع خطواتى الأولى على طريقهــا وهو أستاذى الدكتور محمــد حلمى أحمــد لتشجيعه المستمر وتيسيره الصعاب وتذليله العقبات بعــد أن ارتضيت لنفسى السير فى هــذا الطريق فقــد منحنى من خبرته ووقته وعلمه ما لا أستطيع فى واقع الأمر أن أوفيه حمه من العرفان ولو كان نيل مصر مدادا لكلماتى لنفــذ النيل قبل أن تنفــذ كلمات شكرى وعرفانى .

وليس من الغرور أو الاعتــداد بالنفس أن أزعم أن بحثى هــذا يتسير فى كل فقرة من فقراته وكلمة من كلماته الى مــدى الــدقة والحــذر والأناة فى العــرض والتحليــل .

لكن من الجحود أن أدعى أن هــذا كله وليــد جهــدى الخاص ذلك أن التوجيه الدؤوب الحانى الصبور اليقظ الذى لقيته من الأســتاذ الدكتــور محمــد حلمى هو الذى نفخ فى بحثى هــذا من هــذه الروح .



نبـذة تاريخيـة

لا ريب أن عصر الدولة الفاطمية كان من أزهى العصور الاسلامية ، فقـد جمع بين كثير من أسباب القوة والعظمة والأبهـة ، كما كانت هـذه الدولة السامقة تمثل الزعامة الاسلامية حيث اتخـذت صورا مضيئة ومظاهر خاصة من البـذخ والترف والعظمة وطبعت الدولة الفاطمية روح الشعب وعقلية وتفكيره بطابعها الخاص ، وأصبغت عليه منهاجها الاجتماعى الذى يتميـز بالطرف والتسامح ٠

ورتبت الدولة فى عهـد العزيز باللـه أول وزارة وكان الخليفة من قبل يتولى شئون الدولة بنفسه ، وكان أبو الفرج يعقوب بن كلس أول وزراء الدولة الفاطمية ولقب بالوزير الأجل ٠ ولمـا توفى الوزير ابن كلس سنة ٣٨٠هـ أستبدلت صفة الوزارة بصفة الوساطة والسفارة ٠ وهكـذا عمـدت هـذه الدولة الى الابتكار والتنسيق فى تنظيم الأصول والخطط الدستورية وفقـا لحاجتها وغايتها السياسية والمـذهبية فأنشأت الدواوين المختلفة كما نفعل فى وقتنا المعاصر فكان لها ديوان الانشاء وديوان الجيش وغيرهما من الدواوين للنظر فيما يختص بالأقاليم التى تشبه المديريات فى الوقت الحاضر ٠

ولقـد تأسست الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم ازدهرت فبسـطت سلطانها على كثير من الولايات العباسية ٠ والفاطميون يرجعون نسـبهم الى الحسين بن على وفاطمة بنت الرسول رضى اللـه عنهما ولكن كثيـرون من المؤرخين ينكرون عليهم هـذه الدعوة ويرون أنهم أدعياء لا يمتون بصلة الى آل على رضوان اللـه عليه ، وانما تسربلوا بلباس التشـيع والامامة ليكسبوا عطف العالم الاسلامى ٠

وبينما كانت الدولة العباسية تجتاز مرحلة اضطراب وخوف ، كانت الدولة الفاطمية بالمغرب تتألق فى سماء النماء والازدهار ، كما كانت القبائل البربرية تشـد أزر الفاطميين ، وأقامت ملكهم فوق ملـك الأغالبة ، وتحتفظ فى هـذا القفر بخشونتها وبأسها بعيـدة عن تيار الحضر والنعماء والترف ٠ ولقـد عمـدت الدولة الفاطمية الفتية على تقويض دعائم الدولة العباسية وانتزاع الزعامة والامامة منها ، وفى ذات الوقت تراءى لها من خلال القفـر النائى مصر كـدرة خضراء اكتمل لها من أسباب الخصب والغنى ما يجعلها أصلح مركز لتحقيق غاياتها ونيل أمانيها ٠

حاول الفاطميون الاستيلاء على مصر ، فزحف عبيد الله المهدى أول خلفائها عليها واستولى على برقة والاسكندرية ولكنه ارتد عنهما أمام جند مصر عام (٣٠٢هـ — ٩١٤م) ٠

ورغم أن الأحوال بمصر كانت قد استقرت فى بداية عهد الدولة الاخشيدية واكتملت قواها الدفاعية فان الفاطميين لم ينبذوا فكرة فتح مصر ، ففى سنة (٣٣٢هـ — ٩٤٤م) بعث الحاكم بأمر الله ثانى خلفاء الفاطميين جيوشه الى الاسكندرية تارة أخرى ولكنها ارتدت على أعقابها خاسرة تجر أذيال الفشل والهزيمة ٠

أخذ ولاة الفاطميين يراقبون الأحوال بمصر عن كثب وأمل ، ولم يخبو لهم رجاء حتى أبان فورة القوة الفتية للدولة الاخشيدية فى أول عهدها ، انتظارا لظرف موات وانتهازا لفرصة ٠

وعندما تطرق الوهن والضعف اليها بعد موت كافور ، ولاح فى الآفاق عوامل الانحلال والخور وقد سرت صراعا فى عضد مصر المادى والمعنوى ، هذا على جانب ، وعلى الجانب الآخر بث دعاتهم بين ربوع مصر وجنباتها دعوتهم ، كما ساعدهم كثير من المصريين وعلى رأسهم رجل من أكابر رجال الدولة « يعقوب بن كلس » الذى فر من مصر الى المغرب ودعا المعز لدين الله — رابع الخلفاء الفاطميين — الى مصر بعد أن وضع أمامه صورة واضحة عن حالها وضعفها واضطرابها فضلا عن غناها وخصبها ، مما أسال لعابه لفتحها ٠ وعندئذ زود الخليفة المعز لدين الله قائده المظفر « جوهر الصقلى » بجيش كامل العدد والعدة والعتاد ، وسرت الأنباء فى مصر بمقدم جيش الفاطميين وكانت نفوس أبناء مصر ممهدة لاستقبال جيش المعز لدين الله ، كما كان سواد الشعب المثقف يؤثر الانضواء تحت لواء دولة قوية تستظل بلواء الامامة الاسلامية وهكذا وجد الفاطميون عند مقدمهم الى مصر طريقا ممهدا وسبيلا ميسرا وبالرغم من ذلك فان الجيوش الفاطمية خاضت بعض المعارك قبل أن يتم لها الفتح والنصر مع جيوش وفلول الاخشيديين الذين دارت عليهم الدائرة آخر الأمر ولاذوا بالفرار والهزيمة عام (٣٥٨هـ من شهر شعبان) ٠

وفى ركب مظفر سار موكب جوهر الصقلى الى عاصمتها المقرر انشاؤها وحفر أساس قصره فى وسطها ، فكان هذا ميلاد العاصمة الجديدة التى سميت بالقاهرة ، كما وضع وأرسى قواعد الجامع الأزهر ليكون رمزا للدعوة الفاطمية ، ومنبرا للامامة والزعامة الجديدة ٠

وبعد أن بسطت الخلافة الفاطمية سلطانها وامامتها على المغرب ومصر والشام والحرمين فى عهد المعز لدين الله توالى الخلفاء الفاطميون العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله موضوع هذه البحاثة التى تهدف أن ترد الحق الى أهله وذويه ٠

الحاكم بأمر اللـه

من هـو ؟

هو أبو على منصور الملقب بالحاكم بأمر اللـه بن المعز لدين معـد بن المنصور باللـه اسماعيل بن القائم بأمر اللـه محمـد بن المهـدى عبيـد اللـه العبيـدى الفاطمى ٠

مغربى الأصل ، مصرى المولد والدار والمنشأ ، ثالث خلفاء مصر من بنى عبيـد ، وسادس من ولى من أجـداده بالمغرب وهم المهـدى والقائم والمنصور٠

ولـد بالقصر الفاطمى بقاهرة المعز لدين اللـه يوم الخميس فى الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة هجرية والمـوافق أربعة وعشرين من أغسطس سنة خمس وثمانين وتسعمائة ميلادية ٠

اختلفت الروايات فى نسبه لأمه فقـد قيل أنها جارية مستولدة رومية نصرانية من طائفة الملكانية ذات نفوذ وسلطان ابان حياة زوجها العـزيز مما كان له أثر كبير فى سياسة التسامح مع الذميين ـ التى سار عليها العزيز باللـه وفى تقوية نفوذهم وتمكينهم من مناصب النفوذ والسلطان ٠ كما يؤيد هذا الرأى ما وصل اليه أخوى زوجته النصرانية من توليهما منصبين مرموقين بالكنيسة ببيت المقـدس والاسكندرية ٠

كما تقول بعض الروايات أن العزيز باللـه ترك للحاكم أختين احداهما ـ شقيقة نصرانية هى « ست الملك » وكانت تكبره بنحو خمسة عشرة عاما فضلا عن أنها كانت حازمة عاقلة ـ قوية الشكيمة صاحبة عزيمة وبصيرة ـ وكانت مقربة الى أبيها يسمع نصحها ويأخـذ برأيها ٠

ويقول المؤرخون أنها لعبت دورا خطيرا فى حياة الحاكم بأمر اللـه عجل بنهايته وموته كما جعل حياته وموته لغزين غامضين ٠

وقالت بعض الروايات أن أمه هى الزوجة الشرعية ـ « العزيزية » ـ المسلمة وكان الهـدف من نسبه الى أم جارية للتقليل من شأنه ونسبه وأصله

وهـذا الرأى من وجهة نظرنا هو الأصوب والأصـدق ويؤيده سلوك الحاكم بأمر اللـه نحـو الذميين عامة والنصارى بصفة خاصة ولو كان له خئولة فيهم ما نكل بهم وما اضطهدهم بهـذا الشكل المروع الذى أخذه عليه

التاريخ كما يدعمه ما رواه المؤرخون عن الدور الخطير الذى لعبته أخته من الجارية القبطية فى حياته ومماته ٠

ولقـد نشأ الحاكم جـدا فى آرائه مطلقا فى تصوراته منـذ نعـومة أظفاره وفى صباه ولقـد تعلم علوم الشيعة فضلا عن علوم الفلسفة والفلـك الذى ولع بهما ولعا شـديدا ٠

ولقـد أوكل أبوه العزيز باللـه أمر داره ورعايته الى خادمة برجوان الذى كان يدبر أموره والذى أخـذ له البيعة على الناس وكان الحاكم باللـه قـد ولى العهـد بتوليه من أبيه فى شعبان سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ٠

توليـه الخلافة :

بويع الحاكم بأمر اللـه خليفة فى بلبيس يوم وفاة أبيه وخرج الى عاصمة ملكه فى زينته وفى موكب تحفه مظاهر العظمة والغنى وجمع بين جلال الخلافة وهيبة الموت وفى صباح اليوم التالى جلس على سرير من ذهب متقلدا عمامة مرصعة بالجواهر والذهب واللؤلؤ ٠

وكان العزيز قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى قـد أوصى بولده ثلاثة من أعظم رجال الدولة(١) والذين نشب بينهم الخلاف واشتد حتى آلت الوصايا الى برجوان الذى كان أوثق اتصالا بالخليفة الصبى وأشـد تأثيرا عليـه وأعظم مقـدرة على توجيهه ٠

استمر برجوان يتبوأ مقعـده من السلطان زهاء عامين ونصف عام واستأثره بخروة القوة والحكم يعزل من يشاء ويعين من يشاء وتمـادى فى غيه وجبروته فى بغى وصلف شـديدين واستبد بكل أمر من أمور الدولة ، ولكن دوام الحال من المحال فما لبث أن تغير الحال وتبـدل وتحركت صحوة صحية فى نفس الحاكم الصغير الذى لم يتجاوز عمره الرابعة عشر فرأى أن الخطر كل الخطر فى الابقاء على مقاليـد الأمور بيـد برجوان الذى يخطط

---

(١) أوصى العزيز قبل موته ثلاثة من أكابر الدولة هم برجوان خادمه وكبير خزانته ، والحسن بن عمار الكتامى زعيم كتامة ، ومحمـد بن النعمان قاضى القضاة وعهـده بالوصاية الى الأول والثانى وكان برجوان قـد ربى فى القصر واختاره العزيز وولاه امارة القصر وخلع عليه لقب الأستاذ « وعهـد اليه بمهام الأمور وأولاه ثقة عظيمة » ٠
الحاكم بأمر اللـه : ص ٤٤

لنفسه ولم يبق الا القليل من الزمن والخطى للاستيلاء على ناصية الحكم بعد أن نزع نفوذ الزعماء المغاربة من الولايات والثغور ووزع السلطة على نفر من أصدقائه الصقليين الذين يمكن الاعتماد عليهم ويضمن ولاءهم له ٠

كان برجوان يحجب الأمير عن الاتصال برجال الدولة ويسدل بينه وبينهم ما استطاع من أستار كثيفة ، ويرده الى مجالس اللعب واللهو ٠

وكان برجوان يلعب هذا الدور القذر تحت نظر وبصر أم الحاكم التى ترى ولدها ينمو ويترعرع فى بؤر الفساد والمعاصى وفى ظل الوصاية ٠

ولكنها عاجزة عن التدخل لانتشاله مما هو فيه ، ولا حول لها ولا قوة للأخذ بيده من الهاوية المدبرة له وبه ٠ ولكن الحاكم الصغير رغم حداثة سنه وصباه فطن الى الخطر الداهم الذى ينصب شراكه حوله ، وأحس بما يحاك له من وراء الدنيويات واللهو والفجور ، واسترعى سير الأمور اهتمامه واستلفت نظره وأحس بالخيانة مبيتة فى موقف برجوان ، والعمل من جانبه على الاستيلاء على الحكم والاستئثار بالسلطة وها هو ذا يجعل شئون الدولة كلها قبضته ٠

بلغ الحاكم أشده وأتاه اللـه حكما وعلما ، وأشرف على الخامسة عشر من عمره ، وأضحى الطفل البرئ شابا يافعا يقظا له طموحه وتطلعاته وواسع آماله ، وما زال برجوان فى طغيانه يعمه وعلى طريق الخيانة يسير ، وقد جمع كل خيوط الحكم فى يده وشدها شدا نحو نفسه بعيدا عن الحاكم مثيرا حوله ضراما من البغضاء والحقد ، شاحذا عداوة خصومه داخل وخارج البلاط الى العمل على هدم سلطانه وتقويض مكانته ٠

ولكن عين اللـه لا تنم فلقد سقط برجوان فى الحفرة التى حفرها للحاكم من قبل بعد أن حاك المؤامرات ودبر الخيانات حول الحاكم ، وظن أن الأمور مطويات بيمينه ، فأنكب على ملاهيه واندفع الى ملاذه وأعماه اللـه عما لاح على وجه الحاكم من علامات اليقظة ، وما وقع فى نفسه ، وما ظهر على صفحة وجهه من مشاعر التبدل والتطور ، واستمر برجوان يعبث فى الأرض فسادا وتمادى فى غيه واستهتاره وغرق فى مجونه الى هوة سحيقة لا تتفق مع مقامه ومكانته ٠

وذهب برجوان الى أبعد الآماد ، فأساء الى الحاكم فى كل الآفاق ونقض

أوامره ، ونسى أنه له تابع يجب أن يفعل ما يؤمر ، ولا يعصى له أمرا وتطاول على الحاكم الى حـد اهانته واحراجه(٢) والاستخفاف به ٠

فضلا عن أنه سماه « الوزغة » ونقل ذلك الى أسماع الحاكم ، ولكن الوزغة(٣) الصغيرة صارت تنينا كبيرا خطيرا ٠

ثار الحاكم لسلطانه المسلوب ، وكرامته الضائعة وتحركت فى عروقه ثورة الانتقام واسترداد سلطته ، والتخلص من الوصى المتآمر ، ودار بخلـده كل صور الانتقام والخلاص من هـذا الثعبان الضارى ، وبلغت الثورة فى نفسه ذروتها ٠

وأخـذ الحاكم يقلب الوسائل بين عقله وقلبه ولم يجـد الا طريقـا واحـدا ـ القتل ـ ولا شيء غير القتل ٠

استدعى الحاكم بأمر اللـه قائد قواته ـ الحسين بن جوهر ـ وأوكل اليه مهمة الخلاص من برجوان ـ وكأنه قـد أحسن الاختيار ٠

وذات مساء معلوم ، بعثه الحاكم الى برجوان للركوب معه ، فانتظره فى بستان قصر اللؤلؤة يصاحبه ريدان حامل المظلة فوافاه برجوان هنـاك وعنـدما هم الحاكم بالخروج من باب البستان لقى برجوان نحبه أثر طعنة قاتلة فى عنقه بسكين على يد قائد القـوات وجماعة قـد أعدت للفتـك به فأثخنوه طعنا بالخناجر وفصلوا رأسه عن جسـده وواروا جثته التراب حيث قتل فى ربيع الثانى ٣٩٠هـ الموافق أبريل سنة ٩٩٩م ٠

صودرت أموال برجوان الجمة الكثيرة الهائلة ، وآفل نجم حوارييـه وأصـحابه ، بل واختفوا من الميـدان ، وهكـذا طويت صـفحة الوصـاية بخيرها وشرها وانتهى عهـدها ، ومعها طويت مرحلة من حياة الحاكم ، وبـدأ عهـد جـديد فى الآفاق يقر بذكاء الحاكم وفطنته وآماله الوثابة فى عزم واقـدام ٠

---

(٢) يقول المقريزى : ان الحاكم استدعاه ذات مرة وهو راكب معـه فسار اليه وقـد ثنى رجله على عنق فرسه وصار باطن قـدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم ابن الأثير جـ ٩ ص ٤٢

(٣) الحيـة الصغيرة ٠

السلطة بيمين الحاكم بأمر اللـه :

بدأ الحاكم باختيار مدير لشئون دولته مكان الوصى الراحل فوقع اختياره على الحسين بن جوهر الصقلى ، ولا ريب كان اختيارا موفقا فهو رجل أريب ولم يكن من بين رجال الحاكم من هو أرفع مقاما ولا أجـدر حنكة ولا أحق منه ليتولى شئون الدولة وأمورها ، فاستدعاه الحاكم وأسند اليه الوظيفة الجـديدة ولقبه فى سجل التعيين « بقائد القـوات » ٠

ـ وفى نفس الوقت استدعى الحاكم « فهـدا » وهـدأ روعه وأقره فى منصبه ـ فعكف قائد القوات على مباشرة مهامه الجـديدة يعاونه خليفته الرئيسى فهـد وأصـدر أمرا بأن تبلغ اليه المظالم والمهام فى مكانه بالقصر ٠

البـداية الحقيقية لعهـد الحاكم :

وضع الحاكم رغم حـداثة سنه ولم يكن قـد بلغ بعـد الخامسة عشر من عمره مقاليـد الحكم فى قبضة من فولاذ وباشر بنفسه أمور حكمه وأبـدى فى تدبير مهامها وادارتها نشاطا ملحوظا لفت معـه الأنظار ٠

وفى كثير من الأحايين كان يضع أنفه مع وزرائه فتولى النظر فى كل شىء وآثر العمل الجاد الشاق المضنى على اللهو واللعب ، ولم يشـده الجاه ولا السلطان الى الترف والنعيم اللذين يتطلع اليهما من هم فى مثل عمره وسنـه ٠

كرس الحاكم شبابه وأيامه ولياليه لادارة سلطانه ودولته فنظم مجالس ليلية لبحث شئون الدولة العامة يحضرها كبار رجال الدولة وخاصتها ، وعمل على اقصاء الأتراك والصقالبة الذين قامت عليهم سياسة برجوان ، وحـل مكانهم المغاربة كما كان الأمر من قبل أيام حرب المعز لدين اللـه ٠

وعفت نفس الحاكم عن مال الرعية ولقـد ظهر ذلك جليا عندما انتقل (جيش بن الصمصامة) والى الشام الى الرفيق الأعلى وقـد وفـد ولده على الحاكم يحمل بين يديه وصية أبيه التى يوصى فيها بجميع ما له للخليفـة ، فرد الحاكم المـال الى أهله ومستحقيه وكان مائتى ألف دينار زاهدا فيـه ، ولقـد كانت العفة صفة أكيـدة فى الحاكم بأمر اللـه برزت فى مواطن كثيرة من تاريخ حكمه ٠

صـفاته :

أفاضت الروايات التاريخية وصفا فى بنائه وبنيته فقالوا : كان الحاكم يتمتع بمظهر الجبابرة منــذ حداثة سنه ، مبسوط الجسم مهيب الطلعــة ذا بنية قوية متينة ، له عينان كبيران سوداوان فى زرقة ، وله نظرات حادة مروعة كنظرات الليث لا يستطيع الانسان عليهما صبرا ، وله صوت جهورى قوى مرعب يحمل الفزع الى سامعه(٤) ٠

ويرجع المؤرخون ذلك كله الى أنه كان سليل نسل من جبابرة الصحراء الأقوياء وكــذلك كان أبوه المعز لدين اللــه عريض المنكبين قوى البنية متين البنيان فورث الحاكم عنه ذلك كله ولم يبــدد من هــذا الميراث شيئا فى الملذات أو الشهوات كما يفعل معظم الشباب ٠٠

ولقــد اختلف المؤرخون فى وصف عقلية الحاكم بأمر اللــه ، وذهبوا مذاهب شتى فى وصف تصرفاته حتى أنهم اتهموه بالجنون ولو بحثوا الأمر وتحروا الحقيقة لرفعوا له ذكره ووضعوا شخصه فى مكانه الحقيقى اللائق به ٠

ويجــدر بنا قبل أن نتعرض لدراسة وتحليل هــذه الشخصية الفــذة الملهمة أن نتعرض الى دراستها واستجلاء غوامضها ، واستقراء الأحــداث وعلينا عرض أعمال الحاكم وتصرفاته ، وما يدور من أحــداث داخل وخارج أسرار قصر الحاكم ونلم المــاما تاما بروح العصر ونفسيته ، تلك الشخصية البارزة الفريدة التى تبوأت مقعــدها من المقام الأسمى بما أفاضت عليه من روعتها ونزعاتها وأنشطتها العــديدة الجليلة ٠

اعتلى الحاكم كرسى الامارة وقــد ظهر الفساد فى البر والبحر وانتشرت الخلاعة والمجون بين العامة والخاصة ورأى الحاكم أن ينشل الدولة الفاطمية من السقطة الرهيبة ، والهوة السحيقة التى هوت اليها ويعيــد لها مكانتها وذروتها وأن يسمو بالمجتمع الذى يعيش فيه وينتسب اليه ، ولقــد كانت هــذه الانتفاضة المــأمولة فى حاجة الى حزم وقوة بالغين ٠ وقــد دعى ذلك بعض المؤرخين والباحثين الى أن يقــدموا الحاكم بأمر اللــه فى صورة رهيبة مروعة مثيرة ، صورة جبار منتقم سفاح سفاك للدماء ، طاغية مضطرم الأهواء والنزعات ، متردد متناقض الرأى لا يثبت على حال واحــدة ٠ شرس جموح ويميل الى الشر خائن وافر الغــدر لا يخبو ظمأه الا باراقة الدماء وسفكها ، شخصية مهلهلة بغيضة شاذة خطيرة فاقــدة الرشــد عديمة الاتزان يغلب عليها الشر والحقــد الأسودان ٠

---

(٤) الحاكم بأمر اللــه : ص ٣ ، الأنطاكى : ص ٢٢

وهـذا ما قـدمته الرواية الكنسية المعاصرة والتى لاقت على يـديه اضطهادا مريرا وتعنتا عظيما مما دعى كثير منهم الى الهجرة من مصر ٠

كما قـدمته الرواية الاسلامية بأشـد وأعظم من ذلك اذ تقول « كان الحاكم سيء الاعتقاد كثير التنقل من حال الى حال ، وكان مؤاخـذا بيسير الذنب حادا لا يملك نفسه عنـد الغضب فأفنى أمما وأجيالا وأقام هيبـة عظيمة وناموسا » ٠٠

وكان رديء السيرة فاسـد الاعتقاد مضطربا فى جهيع أموره يأمر بالشيء ويبالغ فيه ثم يرجع عنه ويبالغ فى نقضه ٠٠ « وكانت خلافته متضادة بين شجاعة واقـدام ، وجبن واحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل الى الصلاح وقتل الصلحاء ٠ وكان الغالب عليه الصلاح وربما بخل بما لم يبخل به أحـد قط(٥) وكان جوادا سمحا خبيثا ماكرا رديء الاعتقاد وسفاكا للدماء نقل عـددا كبيرا من كبراء دولته صبرا وكان عجيب السيرة يختـرع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعب عليها(٦) وكانت حاله مضطربة بين الجور والعـدل واطخافة والأمن والنسك والبـدعة ٠

وان القارىء لهـذه السطور تتملكه الحيرة لهـذه الصور المتضاربة التى تضعه فيها المـؤرخون ويتناقلها فى كتاباتهم الباحثون ولكن المـدقق بين سطور هـذه الأبحاث والمقالات يستشف عناصر المبالغة كما يتلمس كوامن الحقـد والهوى بين سطور المؤرخين والباحثين ، يجـد القارىء أن الذين كتبوا هـذه المقولات انما قـد تناولوا جوانب عجيبة يتبين فيها القارىء عنصر التحامل على هـذه الشخصية وأنه لم يتوخى جانب التـدقيق والتحقيق ودراسة الظروف والأحوال ، وانما أراد عنصر الاساءة وتشـويه الحقيقـة والجنوح الى السب والتجريح وهـذا ما يجب أن يجافيه المؤرخ اذا أراد أن يصل الى الدرجة السامقة التى يرجوها وينشـدها ٠

ومن هنا نرى أنه لكى نقف على جانب الحقيقة ونتوخاها ونتفهـم شخصية الحاكم ونفسيته عبر سنى حكمه وتوليته العرش ولا نسير على خطى الأولين كما سار بعضهم عقب بعض دون دراسة أو تمحيص أو تدقيق ٠

وان كان الحاكم بدأ قصيدة حياته كحاكم كفرا كما يقولون فاننا نرى أنه فى جانب الحق ــ اذ أن ذكاءه الفطرى وثاقب فكره وصادق وعيه ، وحسـن

(٥) النجوم الزاهرة : جـ ٤ ص ١٧٦
(٦) ابن خلكان : جـ ٢ ص ١٦٦ ــ والنجوم الزاهرة : جـ ٤ ص ١٧٨

يقظته رغم حداثة سنه وصباه قد ألهماه بالخطر الداهم الذى يحيط به ويلتف حول عنقه فان برجوان الوصى على عرشه الأريب صاحب الطموح المتطلع الى الحكم المدبر للمؤامرات للوصول اليه المستهتر بالحاكم كان ولا بد قاتله ولكن فطنة الحاكم ويقظته والمعيشة دعته الى العجلة فى قتله وخاصة أنه قد بلغ من سمو المكانة ما قد بلغ وأحاط نفسه بالأعوان والأصدقاء وأهل الثقة توطئة للاطاحة بالحاكم المحجور عليه من صاحب الأمر والنهى ٠

ومن المؤرخين من قال : أنه فعلا قد تآمر على قتله فتنبه الحاكم الى ذلك الخطر الذى يتربص به ولم يكن أمامه الا سبيل الخلاص منه ٠

واذا أردنا أن نتناول الحادثة الثانية ألا وهى قتل وزيره « فهد بن ابراهيم النصرانى » فان الحاكم لم يقتله عبثا ولا حبا فى سفك الدماء البريئة والتى قدمتها الرواية الكنسية أيضا والتى جاء فيها « أن الحاكم أمر بقتله لأنه أبى اعتناق الاسلام وجعلت منه شهيدا كما زعمت أن جثته قد ألقيت فى النيران فلم تحترق ٠٠

ولقد أفاضت الروايات المعاصرة وسارت الروايات المتأخرة سيرتها دون تعقل أو تدبر ساردة الحوادث الدموية المروعة ، واتخذت الحملات المغرضة وسيلتها ومادتها العنيفة لتصوير الحاكم فى صورة الوحش الضارى والحاكم الباغى ، ولقد شاعت المختلفات من النوادر والنعوت القبيحة فتناولها الناس كما تناولها المؤرخون وتندروا بها حتى سارت حقائق وما هى الا أباطيل طمست الحقائق وباعدت بينها وبين الناس ولنتدبر ما يقوله لنا الوزير جمال الدين المصرى عن الحاكم وخطته الدموية ما يلى :

« وكان مؤاخذا بيسير الذنب حادا لا يملك نفسه عند الغضب فأفنى أمما وأباد أجيالا وأقام هيبة عظيمة وناموسا ، وكان يفعل عند قتله الشخص أفعالا متناقضة وأعمالا متباينة ، فكان يقتل خاصته وأقرب الناس اليه وربما أمر باحراق بعضهم أو بحمل بعضهم وتكفينه ودفنه ، وبنى مقبرة عليه وألزم كافة الخواص ملازمة قبره والمبيت عنده ٠

وأشياء من هذا الجنس يموه بها على عقول أصحابه السخيفة فيعتقدون أن له فى ذلك أغراضا صحيحة استأثر بعلمها — وتفرد عنهم بمعرفتها — وهو مع هذا القتل العظيم والطغيان المستمر يركب وحده منفردا تارة — وفى الموكب أخرى ، وفى المدينة طورا وفى البرية أخرى ، والناس كافة على غاية الهيبة له والخوف منه والوجل لرؤيته ، وهو بينهم كالأسد الضارى فلم يزل أمره كذلك مدة ملكه وهى احدى وعشرين سنة ٠٠

وبهذه الصورة الكنسية والرواية الاسلامية طرت الأقلام عن الحاكم بأمر اللـه ، وبنظرة أولى الى هـذه الصورة يتضح للقارىء افتعالها وحياكتها فى غير دقة ولا تدبر ضـد هـذا الحاكم وهل يطيق الطاغية ويصبر على أن يسير بين شعبه المغلوب على أمره المقهور المسلوب حقه فى الحرية منفـردا أمنا ومجيبا لمن يبادره بالكلام كما سيأتى ذكره فى بعض الروايات ان الاختلاق والافتراء والتـذرع فى هـذه الروايات بين واضح ولا يحتـاج الى تفنيـد أو تقنين وهل الهيبة وحـدها تصـد مظلوما أو موتورا عن ارتكاب حماقـة قتل أو اعتـداء حتى لو أدى ذلك الى اعدامه أو انهاء حياة أو ازهاق روحه ، وهل يستطيع الحاكم الظالم ولو كان قويا مهيبا أن يخرج على قومه منفـردا دون حراسة أو حماية ومن يعصمه من الناس المظلومين والموتورين ، ولكن العـدل وحـده هـو الذى يعطى الحاكم الأمان والى حـدود لا الى أبعـدها أو كلها . ان عـدل الحاكم وحب شعبه له كانا له حارسان صادقان .

ان معامل الأمان الذى يظلل حياه الحاكم بأمر اللـه هو نتيجة عـدله وعظمة حكمه ، وصـدق ولايته .

وان دواعى القتل التى أبرزتها الرواية الكنسية وتصـدقت بها ، كانت من دواعى وأسباب خفية ومغرضة .

ان صبا الحاكم وحـداثة سنه حركت عوامل الطمع البشرى فى نفوس من ولاهم أمر الدولة وسلطانها ، وظنوا أن الحاكم فى غفلة يجب انتهاز فرصتها السانحة للاطاحة بحكمه والاستيلاء على السلطة ، ولكن الأمير الصبى الذى لم تلهه الدنيا ولا زينتها ، ولم يشغله الا اليقظة والفطنة والذكاء .

وهكـذا كان الحاكم أريبا ، قادرا ، متيقظا ، مقوضا لمؤامرات المتآمرين .

ولقـد أبرزت أيضا الروايات الكنسية ادعاءات عجيبة فأصبغت على القتلى من غير المسلمين صورة عجيبة بعيـدة عن التصـديق قريبة من الخيال بزعمها أن جثة وزيره فهـد لم تحترق وهل يجوز ذلك فى عصر انتهت فيـه المعجزات ولم يبق الا الخرافات وما هـذا الا دليل واضح على افتراء المغرضين على الحاكم بأمر اللـه .

ولا يفوتنا أن نذكر القارىء بأن واقع هؤلاء الأعوان وتطلعهم الى الاستيلاء على الحكم وشـهوتهم الجامحـة للقبض على زمام السـلطة والحرص على استبقائها بشتى الوسائل كان حـديث المجتمع وقتئـذ كما كانت سير هؤلاء

الأعوان تلوكها الألسن وهـذا دعاهم الى الصمت عنـدما تقتلهم الحاكم ولو كانوا على مستوى حب الجماهير ورضاهم لثارت ثائرة الشعب حزنا عليهم وألما من أجلهم ولكن التاريخ لم يذكر لنا مثل هـذه الثورات التى نعهـدها ونقرأ عنها فى كل عصر يتوجه الظلم والطغيان ٠

الحاكم وأسلوب الحكم :

طالع علينا المؤرخون بتناقضات جمة وأن التاريخ لم يذكر مثل هـذه المتناقضات عن حاكم كما ذكر عن الحاكم بأمر اللـه وحكموا عليه بدون تريث وحمل عليه الأولون حملات مغرضة وسار على خطاهم من جاء بعـدهم من غير تريث أو تمحيص ومن أقوال المعارضين :

« كان الحاكم ظلوما سفاكا للدماء ، غليظ الطبع لا يعرف قلبه الرحمـة ولا يخطر على فؤاده الحنان ــ وكان لا يستقر على أمر كريشة الريح » ٠

ويقول ميخائيل شاروبيم بك :

وصفت الأمور للحاكم فكثر شره ، وكبر ظلمه ، وعظم افساده وطغيانـه وكان لا يستقر على أمر من الأمور وكان له فى كل ساعة شأن ٠

كما يقول دكتور عطية مشرفة ٠٠ « كان شاذا فى طباعه اذا عاقب أفرط وسفك الدماء واذا أثاب أو أحب بذل ما لم يبذله خليفة من قبل وكانت أعماله متناقضة يفعل اليوم ما ينقضه غـدا ومن أحسن أعماله أنه شيد دار الحكمة وأنه أنشأ مرصـد فى سطح المقطم » ٠

ومن هنا نرى أن مقالات المؤرخين ما هى الا عبارات انشائية نقلت عن أسلافهم وافتراءات خيالية يفقصها الدليل التاريخى الذى يبحث عنـه دائما المؤرخ والباحث ٠

وواقع الأمر بعـد استقراء الأحـداث ودراستها أن الحاكم بأمر اللـه كان فريد عصره ووحيـد نسجه وعقلية فـذة وقريحة مفرطة وقادة ، وذكاء جم ولم تكن تلك المتناقضات التى قـدمها الينا المؤرخون الا روايات تصلح للمسرح والتمثيل والاستخفاف بعقول البسطاء المخمورين واللاهين على موائد المنكر والشراب ٠

ان الحاكم كان ذهنا متوقـدا بعيـد الغور وافر الابتكار كان عقليـة تسمو على مجتمعها وسبقت عصرها وزمانها بمراحل ومجمل القول كان عبقرية وقادة تبوأت مقعدها من ذروة التاريخ ومكانها عند القمة ٠ ولو كره المفترون ٠

الحاكم والمراسيم(٧) :

كان الحاكم مولعا بالليل وسكونه تنغوفا به ، يعقد مجالسه فيه متخذا من السكينة مجالا للتركيز والتدبر وهدوء التفكير كما كان يواصل الركوب كل ليلة ويقوم الليل الا قليلا يجوب الشوارع والأزقة متفقدا حال الرعية يزور كل ليلة حيا ويجوب عدد غير قليل من الطرق والدروب مستطلعا أحوال أمته محتكا بالجماهير متلمسا المتاعب فيمحها يسأل الناس عن قرب ودنو لا يمنع مخاطبا ولا يهمل ساكيا ولا يصد راعيا كان الحاكم يراقب اللـه فى مسئوليته التى حملها القدر عاتقه وانقضت ظهره · أما كان يفعل ذلك بن الخطاب رضوان اللـه عليه من قبل ؟

يعيبون على الحاكم والعيب فيهم ، وما للحاكم عيب سواهم ·

أنسى الناس أن الليل للـه قسم عظيم والحق يقول :

« والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى » ·· كما يقول جل علاه ·

والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس » ·· (صدق اللـه العظيم) ·

ولقد أدى اهتمام الحاكم بالليل أن صدرت الأوامر فعلقت المصابيح وأضيئت الطرق والحوانيت فبدت المدينة كأنها قبس من نور يشع ضوءا وحياة ·

« وهل تستوى الظلمات والنور ؟ » « ان أكثر الناس لا يعلمون » لقد كانت لجولات الحاكم الليلة مزايا جليلة ، فتلمس الفساد الذى استشرى فى الأرض ، والفسق الذى خيم على المجتمعات وقتئذ ، ولاحظ قوة التيار الجارف للمجون والغواية ، لقد أصبحت القاهرة التى بناها جده المعز لدين اللـه تعج بالمعاصى والاثام ، وتصخب بالملاهى ويغمرها الانحلال كما أضحت مرتعا خصبا للشيطان وانتشر بين القوم من يحبون أن تشيع الفاحشة بين المسلمين وتبرج النساء ليبدوا زينتهن لغير بعولهن وخرج الناس عن حدود اللـه وتعدوها وظنوا أنهم يحسنون صنعا ·

فامتدت يد الحاكم لتغيير ما بالقوم فضرب بيد من حديد ليمحوا الفتنة وصدرت المراسيم لتصد الغواية ولم تأخذه رحمة فى دين اللـه فعوقب المخالف بشدة ولما استتام الأمر وهدأت حدة البغى وتوارت الرذيلة أعاد الأمر الى نصابه والخق الى أصحابه وعدلت المراسيم وما ذلك الا فكر صائب وحكمة بالغة « أو ليس لكل مقام مقال » لقد أتى الحاكم

---

(٧) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٦٦ ـ الأنطاكى : ص ١٨٦ ، ص ١٨٧
الحاكم بأمر اللـه ص ٦٥ ـ المقريزى : ص ٤ ، ص ٦٩ ، ص ٧٠

بما لا يستطيعه الأوائل وسبق عظماء وعقلاء عصره ومن هم بعد عصره وكأنه كان ينظر الى المدينة الحديثة من وراء الحجب والأستار وبثاقب نظره بدد عوامل الزمان والمكان ٠

وهل يفعل المعاصرون غير ما فعل ؟ أفلا يعقلون ؟

ومن المراسيم التى أخذت عليه وتشدق بها المؤرخون واعتبرها دربا من دروب الجنون المالنوخوليا « حرم دخول الحمام بلا مئذر وحرم التزين والتبرج كما حرم البكاء والعويل وراء الموتى كما حرم شرب النبيذ والخمر حيث أريقت وكسرت أوانيها وشدد على بائعيها وبدد كل ما فى حوانيتهم ومحلاتهم ودهمت أماكن الفسق والعرايا والبغاء وأزيلت دورها وأوكارها وطهرت أحياء المدينة من أماكن الزلل ٠

وأمر بقتل الضال من الكلاب وتتبعها أينما وجدت الا كلاب الصيد وأبيدت الخنازير بكافة أنواعها وأشكالها عن آخرها ٠

وصدرت مراسيم بمنع النساء من زيارة القبور وحرم صناعة التنجيم والكلام فيها ونفى المنجمون من سائر المملكة وعفى عنهم بعد أن استغاثوا بقاضى القضاة الذى عقد لهم التوبة فتابوا كما فعل مثل ذلك مع المغنيين والمطربين فهجروا الغناء وأعفوا من المطاردة ٠

ومنعت النساء من مغادرة دورهن والخروج الى الشوارع والطرقات متبرجات كاسيات عاريات ولم يستثن من ذلك سوى المتظلمات للشرع والخارجات للحج والقابلات وغاسلات الموتى والاماء ، على أن يكون خروجهن لمزاولة المهنة وقضاء حوائجهن بموجب تصاريح تصدر بذلك ٠

وصدرت أوامر للباعة أن يحملوا السلع والأطعمة الى الدروب والمنازل على أن تحمل السلعة المشتراة للنساء بأداة لها ساعد طويل من وراء الأبواب ٠

واتسمت هذه القوانين بطابع الشدة والصرامة والغلو فى تنفيذها سنين سبعة حتى انتقل الحاكم الى الرفيق الأعلى ٠

ولقد زاد المؤرخون فى حملاتهم ضد الحاكم بأمر الله أنهم قالوا « أنه منع الناس من تناول بعض الأطعمة كالملوخية والترمس والجرجير وغيرها ٠٠ وساقوها للتدليل على فساد عصره واضطراب عقله وسوء حكمه ٠

والنظر فى هذه المراسيم بعد تقنينها وحذف المغالاة منها دليل على ثاقب فكر الحاكم وخشيته لله واتباع أوامره والبعد عن نواهيه ٠

هل القضاء على المجون ومنع الفسق والفجور جنون ؟ وان كان كـذلك فان المجانين يكونون أكثر حكمة وتعقلا من العقلاء أنفسهم ـ لقـد نسى الناس أن ما يزعن بالسلطان قـد لا يزعن بالقـرآن ٠

هل أتباع الهـدى والبعـد عن الدنايا أمر يدعو للغـرابة والدهشـة والتنـاقض ؟

« قتل الانسان ما أكفره »

إن دعاة الرذيلة والذين يحبون أن تشيع الفاحشة بين المسلمين هم وحـدهم الذين يعيبون على الحاكم بأمر اللـه ، فان المراسيم وما حوت من قيم والقوانين وما اتسمت به من فضائل ، وحـدها شاهده على عظمة هـذا الرجل ونقاء نفسه وسـداد حكمه وأنه كان على طريق النور والهدى والصواب ٠

للـه درك أيها الحاكم العظيم

الحق يقول :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعـروف وينهون عن المنكر » ٠٠

الى آخر ما قال جل علاه ٠ فهل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جنون وفساد ؟ هل تدبر الناس قول رسول اللـه (صلم) :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيـده وان لم يستطع فبلسانه وان لم يستطع فبقلبه وان ذلك لأضعف الايمان » ٠٠ (صدق رسول اللـه)

تدبروا يا ألوا الألبـاب

لا يحق لنا أن نأخـذ الأمور برمتها وظواهرها ، أريد أن أسائل الناس ومن صـدقوا هـذه الافتراءات أيعيب حكام الدنيـا المعـاصرين كلهم اليوم أبادتهم للكلاب الضالة وانهم يقتلونها رميا بالرصاص جهارا نهارا ـ أهذا جنون وشـذوذ ؟ أجيبوا أيها العقلاء ـ أتحريم تعاطى المخـدرات والمفترات وتتبع تجار هـذه السموم وصـدور الأحكام التى وصلت الى حـد الاعـدام أمر غريب وفعل شاذ يدل على عقـد نفسية وكبت ومركبات نقص أو عظمة ؟

ان ذلك افتراء ممن سجلوا تاريخ هـذا الحاكم الملهم ٠

« ان الانسان لظلوم جهول »

لقد تعرض المؤرخون لطائفة من المراسيم الدينية التى صبغوها بصبغة الشدة والتناقض والافتراء منها :

- فى سنة ٣٩٥هـ أصدر مرسوما للنصارى واليهود بلبس الغيار وشد الزنار ولبس العمائم السود ٠

- فى سنة ٣٩٩هـ أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها كما صدر مرسوم خاص بهدم كنيسة القيامة ـ وصدر مرسوم صيغ فى عبارة موجزة(٨) ٠

- فى سنة ٤٠٠هـ صدر مرسوم بالتشديد على اليهود والنصارى وألغيت الأعياد اليهودية والنصرانية وأبطلت رسومها واحتفالاتها فى جميع أنحاء المملكة ٠

كما أبطلت رسوم الشعانين فى بيت المقدس وكانت تجرى فى ضجة عظيمة وتزين جميع الكنائس لهذه المناسبة بأغصان الزيتون وسعف النخيل كما ألغيت جميع الأحباس الموجودة على الكنائس والأديرة بأعمال مصر وضمت الى الديوان وخربت كنائس مصر والقدس وأبيحت للنهب وهدم القصير بالمقطم وهو أعظم أديرة الملكانية وكان يأوى البطريرك « أرسانيوس » خال الأميرة ست الملك وقتل أرسامنيوس نفسه بعد ذلك بأشهر قليلة ٠

وتعددت المراسيم وتنوعت نصوصها وبنودها شكلا ونوعا وكما ٠

واحقاقا للحق وحده ووضعه فى نصابه ولتنفيذ هذه الافتراءات والرد عليها بروح العدل والحق وليكمن الناس على بصيرة من أمرهم ويقين نقول :

ان الدولة الفاطمية منذ قيامها كانت تؤثر سياسة التسامح الدينى فى غير تفرقة ولا تمييز وتذهب فى ذلك الى ابعد الآماد واعمقها فتصطفى من اليهود والنصارى من يحتلون أرقى المناصب وأرفع واقوى السلطات والنفوذ ٠

ولقد برز ذلك واضحا منذ عصر المعز لدين الله الذى اتاح الفرص للوزراء من اليهود والنصارى الذين استأثروا بمعظم السلطات فأسرفوا

---

(٨) « خرج أمر الامامة اليك بهدم قماصة فاجعل سماءها أرضا وطولها عرضا » ٠

واستغلوا وانحرفوا وأطلقوا العنان للاهواء الطائفية وقدموا الذميين فى المناصب وآثروهم على غيرهم من المسلمين وأصبح للأقلية الذمية تبتا حافلا من الوزراء وأصحاب النفوذ والسلطان وبفضل هذه الرعاية والاصطفاء وامتلاك زمام الأمور اقتنوا الجم من الثروات وهيمنوا على واسع الأرزاق وامتلكوا الطائل من الجوارى والأموال وبرزت هذه الأقليه وذاع سيطها وأصبحت سيدة عزيزة الجانب وخفت جانب الأغلبية المسلمة دقت من عضدها الجهل والفقر والمرض وكانت الأغلبية المسلمة عبيدا وخدما للأقلية الذمية التى تمتعت بوافر الثراء والجاه والمال والسلطان فضلا عن أن الأقلية الذمية أصبحت تمثل خطرا على الحاكم بعد أن تجمعت السلطات والأموال والجاه فى أيديها واستشرى فيهم الفساد الذى بدى ينطلق الى جماعة المسلمين ·

فلم يكن بد القضاء على هذا الخطر الجديد والتنكيل بذويه والعمل على استقامة أمور الدولة واعادة الدولة لهيبتها ومكانتها اللائقة بها ·

ومن هنا فانه كان ولابد من وقفة ازاء هذا التيار الجارف العنيف « ولا يفل الحديد الا الحديد » - ونبذ السياسة التقليدية التى سار عليها سلفة ومطاردة العتاه المستغلين والذين أطلقوا العنان للاهواء الطائفية والنزعات الشخصية ولو لم يقف الحاكم بأمر اللــه هذه الوقفة الجادة القوية لفلت الزمام من يده ولأردوه شهيدا قتيلا على أرضها ·

لم تكن مطاردة الحاكم للذميين فكرة سودوية كما قالوا ولم يكن اضطهادا عنصريا أو أحقادا طائفية وانما كان رد فعل لتراكمات مبيتة عبر عهود آبائه وأجداده سلاطين الفاطميين الذين آثروا سياسة التسامح وغفلوا عن الكوامن البشرية المترسبة فى نفوس الأقليــة المتطلعة الى السيطرة وفرض الارادة والسلطة والنفوذ ·

واذا كان ثمة مأخذ ينفذ اليه الناقد باسم أسلوب العنف والشدة اللتين صاحبتا وسائل وطرق تقويم الأوضاع ومعالجة الأمور حتى بلغت مبلغ الاعدام وازهاق الأرواح ووصف ذلك كله بالجنون والحماقة فان ذلك كله رد فعل طبيعى لمـا بدر ممن وقع منهم الفعل المشين ·

ان الحاكم بأمر اللــه كان يضع كل أمر فى موضعه يقسو حين يجب أن تكون القسوة ويلين حين يجب وينفع اللين ·

وما هو هذا من أصدر مراسيم لبس الغبار وشد الازار ولبس العمائم السود وأن يعلق النصارى فى أعناقهم صلبانا ظاهرة من الخشب

ـ كما أصــدر مرسوما بهــدم الكنائس فضلا عن اطلاق الهجرة للذميين ؛ يصــدر أمرا بأنهم جميعا آمنون بأمان اللــه عز وجل وأمان نبيه محمــد خاتم النبيين (صلعم)(٩) ٠٠

عنــدما عرف كل حجمه ومكانه واستتب الأمر للحاكم وقضى على الفتنة المنتظرة قبل مولدها وقــد رأى بثاقب فكره ونلباثيته قرب مولدها وأحس أنها ستولد عملاقة فعالة فقضى عليها فى المهــد قضاء قاطعا وقبض على كل أمور الدولة وجمع خيوط الحكم فى يده وقبضته وأعاد الاستقرار الى الحيــاة طبيعية كاملة ٠

ولا يمكن أبدا أن نعــد تصرفات الحاكم تناقضــا ان ما فعله الحاكم صورة متكررة نراها فى كل عصر ومع كل جيل وأن الذى يستقرأ الحــوادث ويتــدبر صور التاريخ عبر العصور الغابرة والمعاصرة يجــد ملامح هــذه الصورة بارزة واضحة « ألم يخرج رسول اللــه محاربا قريش ببــدر وأحــد والخنــدق وغيرها من المعــارك التى أوردها المؤرخون » ؟

ألم يدخل الرسول يوم الفتح مكة المكرمة وينادى القريشيين قائلا : « يا معشر قريش ماذا تظنون انى فاعل بكم فيقولون : أخ كريم وابن أخ كريم فيقول عليه الصلاة والسلام اذهبوا فأنتم الطلقاء » ٠ صدق رسول الله ٠

ألم يعفو رسول اللــه عمن حاربوه وعذبوه وأطلقوا عليه الشــائعات كــذبا وبهتانا بأنه ساحر وأنه مجنون وأنه شاعر ؟ أفى هــذا تناقض ؟ كلا ٠٠ وألف كلا ٠٠

أنه وضع الأمور فى نصابها ، الشــدة حيث وجبت واللين حيث ينفع واللــه المستعان على ما يصفون ٠

ولقــد روى التاريخ روايات غاية فى الغرابة والتناقض وقالوا أن الحاكم أصــدر مرسوما بسب الصحابة أبى بكر وعمر وعثمان كمــا أمر بسب أم المؤمنين عائشة رضوان اللــه عليهم أجمعين ولقــد نبت ذلك على أبواب المساجد ولا سيما جامع عمرو وكــذلك الحوانيت والمنازل والمقابر ٠٠ الى غير ذلك ٠

ولقــد تسبب عن ذلك فتنة بين أبناء البلــد الواحــد فمنهم من ثار لمثل هــذه التصرفات الشينة ومنهم من أيدها وانقسم الناس فريقان ، ثم يقولون عــدل الحاكم عن ذلك وأصــدر مرسوما يحمل التوفيق بين الطرفين وهو مرسوم يشف عن روح العصر من التسامح والعــدل ٠

---

(٩) أنظر نص المرسوم ص ٥٦ ـ ٥٨

والافتراء بين وواضح ــ فهل يقوم حاكم كائنا ما كان على زرع فتنة بين أبناء بلده واثارة الفرقة والشغب بينهم أم يدعو الى الاستقرار والسكينة .
ان الذين خططوا لهـذه الفتنة والمؤامرة الرخيصة والذين حاكوا خيوطها هم الذين سطروا وتشـدقوا بهـذه المفارقات وبالغوا فيها .

ان هـذا التصرف الجنونى الذى نسب الى الحاكم لا يمكن أبدا أن يصـدر عن حاكم هم أنفسهم وصفوه بالذكاء المفرط والألمعية والعقلية الفذة .

ان الذين سطروا الشائعات ودبروا المؤامرات هم أنفسهم الذين كتبوا بوادر تاريخ الحاكم المفترى عليـه وأساءوا الى سمعته ولطخوا صـحائف تاريخه بما تمليه عليهم أهواءهم .

ان خصوم الحاكم هم الذين سطروا تاريخ أعماله وحياته فقـدموه فى هـذه الصورة المروعة المثيرة والذين جاءوا بعـدهم أخـذوا كل شىء برمته ولم يبـذلوا أدنى الجهـد ليتلمسوا الحقيقة فيكتبوها حتى أن الذين أدركوا بعض الحقائق من بين السطور ولم يصـدقوا الافتراءات للغلو فيها ووصفوه بأنه شـديد التناقض لا يصـدر عن روية أو منطق متزن كما قالوا أنه كان طاغية شـديد البطش والسفك ولكن كان ذلك وسيلة لا غاية ، كان خطـة سياسية لا نزاعات وشهوات نفسية وأكثر الناس انصافا له قالوا : انها حالة مرضية كما قال المؤرخ الطبيب المعاصر النصرانى يحيى الانطاكى . ان هـذه الأفعال العجيبة المضادة التى يقوم بها فى نفسه ويفعلها شـيئا بعـد شىء صنف من سوء المزاج المرضى فى دماغه أحـدث لها ضربا من ضروب المانوخوليا وفساد الفكر منـذ حـداثته فان المتعارف فى صناعة الطب أنه قـد يكون فيمن يعتريه هـذا المرض أنه يقوم فى نفسه أوهام ويتخيل أمورا عجيبة ويكون كل واحـد منهم لا يشك أنه على الصواب فيما يتصوره فى جميـع أفعاله ولا يثنيه عن ذلك ثان ، ولا يرده راد وأن منهم من قـد يظن أنه نبى ومنهم من يتوهم أنه الا له بنفسه تعالى كثير .. الخ .

ولقـد نقل كثير من المؤرخين هـذه الأوصاف والأسـانيد وأوردوها بكتبهم واحـدا بعـد آخر .

وأكثر المؤرخون أنصافا العلامة ميللر الألمـانى فيقول :

« ان من يقرأ من أورده المؤرخون من مختلف الأساطير والقصص يخرج بأنهم لم يفهموه وأنهم اعتبروه مجنونا وقـد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة ولكن توجـد ثمة شواهـد واضحة على أن هـذا الأمير الذى هو من أعجب أسرته كان أشـدهم اثارة للأساطير من حوله وأنه حجابا كثيفا قـد أسبغ عليه صورته فلا يستطيع أن تظفر منها الا باللمم .

والحقيقة أن رأى ميللر أقــرب الى العقل والمنطق ٠

ان الانحلال الاجتماعى بين أبناء الأمة كان قائما على قــدم وساق وأن مواكب الحاكم الليلية أتاحت له الفرص السانحة لمشاهدة مظاهر هذا الانحلال المروع والفساد الشامل ٠

وأن الذين أتاحوا هــذه الفرص من الفســاد هم الذميون وهم بذلك يضربون عصفورين بحجر واحــد ، جمع مال وافساد مجتمع مسلم يمكن بعد ذلك افساح الطرق لأنفسهم للاستيلاء على الحكم وخاصة أن مقاليــد الأمور فى كثير من نواحى الدولة كانت ملك يمينهم وتحت أيديهم واشرافهم ٠

وأن المراسيم والقوانين التى لجأ اليها الحاكم لاصلاح المجتمع وعودته الى حظيرة الايمان أوجبت الشــدة وعدم الرأفة فى دين اللــه ٠

رسول اللــه صلى اللــه عليه وسلم يقول : اذا رأوا الناس الظــالم ولم يأخــذوا على يديه يوشك أن يعمهم اللــه بعــذاب ٠ صدق رسول الله ٠

وان الفساد والانحلال وتعاطى الخمر وادمانها والميسر والخلاعة والنساء البواغى كلها من ضروب الاثام ومن الظلم حقا ترك مجتمع بأثره يعيش فى هــذا الفساد الشامل وأن تحرك الحاكم لتقويم المجتمع وانتشاله من بؤر الآثام السحيقة عمل جليل له لا عليه وان كره الكافرون ٠

وكيف يسمح بارتكاب الآثام والدولة التى يعيش فيها هؤلاء الأقوام دولة تتصف بأنها دولة اسلامية قوامها القــرآن وميثاقها شريعة الرحمن وسنتها سنة خير الانام ٠٠ قوامها قرآن يقول « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ٠ وميثاقها شريعة الرحمن وسنتها سنة سيد الانام الذى يقول انما حرم عليكم كل مسكر كما يقول كل مسكر خمر وكل خمر حرام وليس علينا ببعيــد فى وقتنا المعــاصر ما تعانيه الأمم التى تتصف بأنها أمم متحضرة من نكبات وآلام فى شبابها وخيرة أبنائها من تعاطى الخمور والمخدرات المفتــرات وما قــد لمسته ايديهم من ايذاء وأضرار وما لا يحمــد عقباه ولا يشفى منها الكثير كأمراض الكبــد والطحال والجنون والعتة فضلا عن خطورتها الهائلة واثارها الضارة للاقتصاد الوطنى ــ ولقــد افترى المترون على الحاكم بأمر اللــه بتحريم بعض الأطعمة كالجرجير والملوخية ولقــد شاعت هــذه الأمور بادىء ذى بدء بقصــد التنكيت عليه والاستهزاء به فصارت مثلا وصارت اشاعة مصــدقة ٠

واتهموه بمنع ذبح اناث الأبقار السليمة وقــد حرم ذبحها حفظا للنوع ومحافظة على الاكثار والتناسل وفى وقتنا المعاصر نفعل كما كان يفعل من هــذه الناحية ، وهو أمر محمود للحفاظ على الثروة الحيوانية والاكثــار من نســل الماشية ٠

كما أمر الحاكم بقتل الكلاب الضالة وهل هـذا يخالف ما نقوم به الحكومات اليوم فى شتى بقاع المعمورة صيانة للأولاد والكبار من الأمراض المستعصية والقاتله ٠

ولقـد طارد الحاكم المـرأة وأمر بالحجر عليها لمـا شاهده بعين رأسه فى تجواله من أعراض تهتك وخلاعة تغرق فيها النساء وكانت المرأة وفتئـذ أصل الجريمة ومنبع الفساد ومنبت الشرور فرأى بثاقب نظره وعمق ايمانه أتباع نـهج الرحمن وتعاليم القـرآن فباعد بين الرجل والمرأة ليمحو معـالم الرذيلة ويهـدم الغواية وقـد اشتد تيارها وفت فى عضـد المجتمع المصرى كله فأسرف النـاس فى الغى واللهو والمجون وخلعـوا رداء الايمان والحيـاة وتعلقوا بأهـداب الخلاعة والرقاعة والفساد ٠

والحاكم محق فيما أصـدره من قوانين وأحكام وأنه لعلى بصيرة وعلى طريق الحق طريق الهـدى والصواب ألم يقل الحق سبحانه فى كتابه الكريم :

« **وقرن فى بيوتكن** » ٠٠

الم يقل الحق تبارك وتعالى : « **ولا تبرجن تبرج الجاهلية** » ٠٠ الخ ٠

ألم يقل رسول اللـه (صلعم) : « **فاظفر بذات اليـدين تربت يداك** » ٠٠ الخ ٠

الم يقل الحق جل جلاله : « **الزانية والزانى فأجلدوا كل واحـد منهما مائة جلدة** » ٠٠ الخ ٠

لقـد جاء الحاكم بأمر اللـه فى زمان عم فيه الاستهتار واختلط فيـه الحابل بالنابل ، وانتشر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى النـاس ٠

وخرجت المرأة على دينها ونفسها وكرامتها ولعبت بشرفها لعبة الفسق والفجور وباعت موضع العفة منها بثمن قليل وخرجت عن المـألوف من القيم الغراء وردت الى أسفل سافلين ووهبت نفسها لعبة فى يد الشيطان ٠

ولولا بياض هـذه الصفحات وخشية تلطيخها بما ينـدى له الجبين من قصص الفساد والافساد لدونت هنا ما حـدثنا عنه الذهبى من فسـاد المـرأة ابان الدولة الفاطمية(١٠) ٠

---

(١٠) أنظر ص ٥٩ ما قاله الذهبى ٠

ان الأسباب الخطيرة التى دعت الحاكم بأمر اللـه بأن يمنع النساء من مغادرة دورهن والخروج الى الطرقات ليلا أو نهارا الا النادر منهن ولظروف خاصة ويشترط الحصول على رقاع ترفع الى القصر ويصـدر بها تصريح ينفذ بمعرفة الشرطة · أسباب لها وجاهتها وجمالها وهى فى جانب الحق وعلى طريقه السوى القويم ·

ولقـد أخـذ المؤرخون على الحاكم بأمر اللـه ما فرض من أحكام وقيود على الأقليات من الذميين (اليهود والنصارى) وما صـدر فى شأنهما من أوامر وأحكام اعتبر نوعا من الاضطهاد الدينى ·

ان السياسة الفاطمية كانت تأخـذ بأسلوب التسامح الدينى الذى يتحلى به الاسلام وأطلقت حرية الاعتقـاد والشعائر لرعاياها من الذميين الذين يؤدون الجزية بل كانت لهم معاملة خاصة مميزة فى ظل هـذه الظروف ازدهروا وتبوأوا أرفع المناصب وأعلى الدرجات فانتهزت بعض هـذه الطوائف هـذا التسامح الدينى واعتبـروه ضـعفا وفرصـة لتحقيـق أهـدافهم الشخصية ورغباتهم الفردية وحادوا عن الطريق المستقيم وتعـاونوا فيما بينهم على الظلم والعـدوان ودعوا الى التعصب والتكتل واتخـذوا من الدين سـتارا يستترون وراءه ومن مكانتهم سبيلا للسيطرة على الأغلبيـة المسلمة وجمع السلطة فى أيديهم بل أسرفوا فى الاستئثار بها واستغلالها وأطلقوا عنـان الأهواء الطائفية وقـدموا النصارى فى المناصب وأقصوا عنها المسلمين وجمعوا الأموال الطائلة ، وتحكموا فى أرزاق المسلمين وأسرفوا فى مظـاهر الطرف والجاه ، واقتنوا كثيرا من العبيـد والجوارى المسلمين ، وأكثروا من اقامة الكنائس والأديرة وبدت الأقلية النصرانية سيدة عزيزة الجانب مسـيطرة مهيمنة ولم تكن الا الهيمنة على مقاليـد الأمور ، وبسط السلطان على الحكم والحاكم معا ، وفى ذات الوقت ولمـا لا ؟ والفرصة سانحة والمناصب بأيديهم والظروف مواتية ·

ولكن رجل نابه ذكى مرهف الحس فريد عصره كالحاكم بأمر اللـه لا تضيع الفرص عنـده هباء ولا يفلت الأمر من يده وقـد رأى خطورة الموقف عن كثب ، وعمق التـدبير عن فطنة بالغة ففرضت الأحكام الرادعة التى لا مفر من فرضها صيانة للأمة ووحـدتها وحفاظا عليها من الفرقة والشتات والوقوف موقف الحزم والشـدة على النحو الذى كان فطعنه المؤرخون والمعارضون للحكم بالغلو والتعصب والجنون والتقلب ·

ولقـد تحولت هـذه الشـدة فى أواخر عصره الى نوع من اللين والرفق وحسن المعاملة ، عنـدما عادت الأقلية الى صوابها ، وعرفت مكانها وثابت الى رشـدها واستقرت الأمة فى وضعها وزال الخطر ·

لقــد كان الحاكم يضع الأمور فى نصابها يستند الى الشدة اذا دعت اليها الظروف ويلجأ الى اللين والرفق اذا لم ينجم عنهما خطر أو هــدم لكيان الأمة ـ وكان كــذلك بعــد أن تقلص نفوذ الأقلية المتعصبة ٠

لقــد أعتبر المؤرخون ذلك ضربا من ضروب الجنون والمــانوخوليا وسوء المنقلب وهم عن الحقيقة غافلون وعن الحق بعيــدون ٠

لقــد سبق الحاكم بأمر زمانه وعصره وتفوق على أجــداده وأقــرانه من الحكام ، لقــد كان مؤمنا ملهما محافظا على دينه وسنة رسوله أقــرب ما يكون الى السنة منه الى الشيعة ، راجح العقل متوقــد الذهن تلباثيا المعيا ، بعيــد النظر ، واسع الأفق ، فريد عصره ووحيــد نسجه ٠

لقــد كان سبقه لعصره مدعاة لاتهامه بالجنــون والمناخوليــا وهــو منهما براء ٠

واللــه عليم حكيــم ٠٠

الحاكم فى الميــزان

كان الحاكم بأمر اللـــه سخيا جوادا ، وافر البـذل والعطاء ، زاهــدا حنونا عطوفا على الشعب ، يميل الى التخفيف عن الناس ورفع المعاناة عنهم فعنـد المحن والأزمات يرفع المكوس ويخفف الضرائب ، ومن أرفع مميزاته وأسمى سماته العـدل ، ومن الغريب بمكان أن تتمثل العـدالة فى معتـرك من الانحلال والفساد والشذوذ والتضامن لقـد كان الحاكم يتعالى الى قمة من العـدل والذهد تدعوا الى التقـدير والتبجيل والاحترام ، ولقـد اشاد بهـذه السمة الرقيقة قلة من المؤرخين المنصفين ولقـد دللوا عليها فى مواطن كثيرة وعـديدة ٠

وفى ذلك يقول المؤرخ النصرانى الأنطاكى :

« وأظهر من العـدل ما لم يسمع به لعمرى أن أهل مملكته لم يزالوا فى أيامه آمنين على أموالهم مطمئنين على أنفسهم » ٠٠

كما نقل الينا المؤرخون عن الرواية الكنسية واقعة تدل على تمسـك الحاكم بالعـدل وأنه كان يهيم به هياما فضلا عن احترامه للقضاء ٠

لقـد صـدر مرسوم تحريم التنبيـذ وأمر باتلاف الكروم والذبيب والعسل ليمنع الخمور ٠ فخاصمه من أتلف حاجياتهم المجهزة لصنع الحـلاوة فقط وطالبوه بأن يعوض ما أتلفه من ماله ما قيمته ألف دينار فقبل الحاكم الخصومة وطلب أن يحلف التاجر على صـدق دعواه وأنه انما أحرز هـذه البضاعة لصنع الحلاوة فقط ، فحلف التاجر وحكم له بماله وأدى الحـاكم له ما طلب »(١١) ٠

والحقيقة أن الروايات جمة وعـديدة لا يتسع لها المجال ولكن اغفلها المؤرخون المغرضون وطمسوا حقائقها وكادوا للحاكم ٠ وحاكوا حوله الروايات المختلفة والاشاعات المغرضة ٠

ولا يفوتنا أن نذكر أن معيار العـدالة سما فى عصر الحاكم وتوطدت أركانه وعم الأمن وقلت الجرائم بل انعـدمت وعلت كلمة الحق وساد القضاء وتطهرت الأيادى من الرشوة والحرام ، وقطع دابر المجرمين والعابثين واستتب الأمن ، وسادت الطمأنينة لدرجة أن الناس كانوا يتركون محلاتهم وأبوابهم

---

(١١) الحاكم بأمر اللـه : ص ٨٥

مفتوحة دون أن يفقـد منها شيء ، وكان الرجل يفقـد منه درهما ، فلا يجرؤ أحـد من الناس أن يأخـذها من الأرض حتى يمر صاحبها فيأخـذها ولو بعـد حين ٠

ومن السمات الظاهرة الطيبة التى أجمع عليهـا المؤرخون والتى كان يتسم بها الحاكم بأمر اللـه الذهـد والتقشف فى المظهر العام وحياته الخاصة فضلا عن تواضعه المؤثر ونبـذه للألقاب الفخمة التى تحيط بالخلافة الاسلامية فمنـذ توليه عرش مصر منع النـاس كافة من مخاطبتـه بسـيدنا ومولانا وألا يقبل أحـد له الأرض ، ولا يقبل أحـد ركابه ولا يده عنـد السلام عليه اذ لا يجوز الانحناء الى الأرض لمخلوق انما هى بدعه ، وكل بدعة ضـلالة وكل ضلالة فى النار ، وما هى الا من صنع الروم ويكفى شرفا وقـدرا أن يقال السلام على أمير المؤمنين ورحمة اللـه وبركاته ٠

وما أعظم قـدر هـذا الرجل القابض على دينه ، وما أجل سـلوكه وأشرف خطاه ، على درب الرسول الكريم يسير ، وعلى طريق الهـدى يقتدى فبعـد ذلك يقال أنه مجنون أو مخبول انه الحقـد الدفين على من اتبع الهدى ورضوان اللـه ، انه الحسـد المبين على عباد الرحمن الذين يمشـون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ٠

ومن حسن الأدب أن أصـدر أوامره بتقصير عبارات ذكر اسمه على المنابر كما منع الحاكم الاحتفالات التى اندست فى الاسلام والتى ابتـدعها أصحاب البـدع وكثرت فى عهـد من سبقوه الى أن تولى الحكم والتى يعجز البيان بل يخجل عن ذكرها ووصف سوء طالعها ولو ترك العنان للقلم لنفذت الأوراق قبل أن تنفـذ الكلمات والمـداد ٠

وعزفت نفسه عن ركوب العمارات وخيول الخلافة المسمومة ، وترك مواكب الخلافة ٠ واتسم بالبساطة والزهـد وبعـد عن الاستقبالات الرسمية واندفع الى الديمقراطية وتحلى بخصـال الخلفـاء الراشـدين والصالحين الأوائل ، وخلع ملابس الخلافة المطهمة وارتدى ثياب البساطة ، أو دراعة من صوف ، وانتعل حـذاء ساذجا ، وكان يركب فرسـا بلا زينة ، وأغلب طوافه بالقاهرة على حمار دون موكب ولا ضجة ولا عسس ولا حرس ولا حشم سوى بضعة من الركابية ، واحتقر الدنيـا وزينتها ، وارتفع عن الحيـاة وبهجتها ، وانتصر على نفسه وأهوائه وشهواته وسهر على راحة شعبه وأهل بلده ولم ينقطع عن الطواف بالليل والنهار حتى فى أشـد حالات مرضـه وسـقمه ٠

واختلط بالمحكومين واتصل بهم وعاشرهم وألم بظروفهم وأحوالهم ولم يغلق باب قصره دونهم ولم يجعل بينه وبين ذوى الحاجات المظلومين والمتظلمين حجابا ولا سياجا ، أبواب قصره لهم مفتوحة وآذانه لشكواهم واعية وحواسه ومشاعره لهم حاضرة ٠

« وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » ٠

(صدق اللـه العظيم)

رأى

لا ريب أن الحاكم المفترى عليه كان فريد عصره ونسيج وحده اتبع الهدى وصار على درب الرسول الأمين صلوات اللـه وسلامه عليه كان متقد الذهن صافى القلب قوى الشكيمة زاهدا عارفا باللـه مقيما لتعاليمه مؤيدا لفرائضه ، عزفت نفسه عن الدنيا فاستوت عنده مباهج الملك وتقشف العيش ٠ وكان يرى الحق حقا فاتبعه والباطل باطلا ورزق اجتنابه ، وأضفى عليه ايمانه رغم صغر سنه وحداثته المعية وشفافية لم تعطى الا للصالحين والصادقية والركع السجود ، فرأى البلوى قبل وقوعها فدرأها وألم بخروج الناس عن حدود اللـه فردهم الى الصواب بالحسنى وبالسلطان ، ومن لم يزعن بالقرآن يزعن بالسلطان ٠

كان ملما بأحكام القرآن الكريم فدعى اليه وعمل به واتبع النور الذى جاء معه ـ فتح قلبه للايمان فأنار اللـه بصيرته فسبق عصره ومن هم بعد عصره وحطم الجاهلية ، ولم يجعل لها سبيلا الى الدنيا وأطفأ شعلتها ٠

اتهموه بالجنون والقسوة وهو منهما براء براءة الذئب من دم بن يعقوب والفضل ما شهد به أعداؤه فان الحق أبلج والباطل لجلج ٠

وان الذين طمسوا الحقائق وشوهوا وجه تاريخ الحاكم بأمر اللـه ليسألن عما يفعلون وسيعلمون الى أى منقلب ينقلبون ٠

الحاكم والعالم الخارجى

لقد شاهدنا عن كثب الدولة الفاطمية فى عهد الحاكم بأمر الله ورأينا مشاهد كبيرة من الأحداث التى وقعت فى عهده وداخل دولته وسردناها معلقين عليها برأينا مجردا من كل العواطف والملابسات الكاذبة التى أحاطت بتاريخ هذا الحاكم وفى زمن بعينه وألقينا الضوء ساطعا على بعض الأحداث مقتضبا - باعتباره خير الكلام وأحسنه ٠

وكتب التاريخ مليئة بالاحداث الخارجية مفعمة بها ولا تتسع هذه البحاثة لذكرها كلها على سبيل التفصيل والحصر ٠

لذلك فاننى رأيت أن أتناول أكثرها شهرة بين المؤرخين والباحثين ذاكرة الأحداث كما ذكروها وأوردوها ٠

ان الانتصارات الساحقة لجيش الحاكم بأمر الله فى فلسطين وطرابلس وحلب وثورة أبى ركوة التى هى موضع دراستنا على وجه التفصيل والتى كادت تزلزل عرش الحاكم وتهز أركان الدولة الفاطمية غير أنه تغلب عليها وقهر مؤججها وقتله شر قتلة ٠

فلسطين :

اندلعت نيران الثورة فى مسيرة سنة ٣٨٨هـ يتزعمها بحار مغامر يدعى « العلاقة » سيطر على زمام الحكم - فيها وسك النقود باسمه ونقش عليها « عزا بعد فاقة للأمير علاق » وعاصرت هذه الثورة ثورة أخرى فى الرملة بقيادة « المفرج بن دغطل الجراح » ٠

أرسل برجوان جيشا الى الرملة وأخضع ثوارها واستولى عليها وقبض على قائدها ثم عرج الى صور وكان حاكمها قد استنجد بامبراطور الروم فارسل اليه أسطولا بحريا ولكن الجيش المصرى الباسل حاصرها برا وبحرا وحمى وطيس المعركة واشتد أوارها وتأجج لهيبها فأسر سفن ببزنطة وقتل من فيها وكانت الغلبة الساحقة لجيش المصريين ٠ وسقطت صور فى أيديهم وسبى الجيش المصرى من فيها كما أسر العلاقة وأرسل الى القاهرة فأعدم وصلب ومثل بجثته سنة ٣٨٨هـ(١٢) ٠

ثم سار جيش ابن الصمصامة الى دمشق وأخضع الفتنة وثبتت رواسى الدولة الفاطمية وواصل سيره الى « افامية » والتقى الجمعان الروم والمصريين ودارت رحى المعركة حامية ودارت على المسلمين بادىء ذى بدء الدائرة - ولكن سرية من الفرسان بقيادة بشارة الاخشيدى تبتت فى وجه الروم ونفد الى المعسكر البيزنطى جند من المسلمين ووقع الاضطراب فى صفوف الروم وهاجمهم المسلمون بشدة ومزقوا جندهم وشتتوا شملهم ، ونقلوا الآلاف منهم وأسر أبناء الدوقى وجماعة من كبار القادة وأرسلوا الى مصر حتى افتدتهم حكومتهم ثم توفى جيش ابن الصمصامة فى ربيع الأول سنة ٣٩٠هـ وعقد الصلح بين الطرفين ٠

ولما كانت طرابلس تجاور مصر من الغرب ويخشى عليها من أطماع البرابرة الأشداء - فقد رأى برجوان أن يستردها وان يحصنها لتكون درعا واقيا لمصر ولكن الفشل حالفه وفى سنة ٣٩٠هـ أرسل الى برقة جيشا بقيادة يحيى بن على الأندلسى فخاض معارك حربية مع البربر ، ولقد أصابه الفشل أيضا فتركها ٠

حرض أبو القاسم الحسن زعيم عرب فلسطين حسان بن مفرج بن الجراح عام ٤٠٠هـ وأوعز اليه بالخروج على الدولة الفاطمية ، فثار حسان وزحف على الرملة ، واستولى عليها وقتل حاكمها ، وعاثت جنده فى الأرض الفساد وسمى بأمير المؤمنين الراشدين لدين الله ، ونزع ذهب وفضة الكعبة ، وضرب النقود باسمه ٠

واندلعت ثورة أخرى بفلسطين بزعامة ابن المغربى وأرسل الحاكم جيشا اليها بقيادة « بارختكين أوبازكين » العزيزى وأصابه الفشل أيضا وقتل شر قتلة واستفحل أمر بن الجراح وبسط نفوذه وسيطر على جنوب الشام كله وحاصر حصون السواحل ٠

هنا أدرك الحاكم أنه لابد من تغيير أسلوبه وسياسته التى لم تثمر الا شوكا ، كما أدرك ضعف جنده وخور قوتهم ، وسئم نفوسهم فرأى من الحكم والصواب أن ينهج منهجا آخر يغير من حاله وحال موقفه فأخذهم بالرفق واللين وأرسل اليهم الهبات والهدايا والعطايا الجمة فعادت السكينة الى ربوع الشام ٠

---

(١٢) الأنطاكى : ج ١ ص ١٨١ ، ص ١٨٢ - ابن الأثير : ج ٩ ص ٤١ - ابن خلدون : ج ٤ ص ٥٧

أبعـد ذلك يقول المؤرخون أنه مجنون ؟ انها عين الحكمة والعظمة ..

الدولة الحمـدانية :

لم تنجح حملات الفاطميين أيام العزيز فى فتح حلب والتى كان أميرها أبو الفضائل بن حمـدان ، الملقب بـ « سعد الدولة » والذى استمر يحكمها بمعاونة وزيره القوى « أبو نصر لؤلؤ » حتى انتقل الى الرفيق الأعلى وعقب وفاته انتزع الى نصر لؤلؤ الولايه من ولديه أبى الحسن وأبى المعالى وحكم باسمهما حينا من الزمن ثم أخرجهما من حلب فسارا الى مصر والتجأ الى الحاكم بعـد أن استقل لؤلؤ بالحكم وانفرد به ، ولكنه مكر مكرا كبارا اتقاء لخصومه الفاطميين فأعلن طاعته للحاكم .

ودعا له ثم نقض العهـد وعاد الى خصومته له وقاومه . واشتد وطيس الحرب وتعـددت المعارك واختلفوا فيما بينهم ، وفشلوا وكانت النتيجـة الحتمية أن وقعت حلب وسقط فى يد الحاكم وولى عليها أمير من بنى حمـدان يدعى عزيز الدولة ولقب بأمير الأمراء ودخلها عام ٤٠٧هـ واستمر على حكمها فى طاعة الحاكم حتى لقى ربه .

ويعـد سقوط حلب فى يـد الخلافة الفاطمية ، وزوال الدولة الحمدانية من أعظم الانتصارات الخارجية فى عصر الحاكم بأمر اللـه .

ثورة أبى ركوة(١٣) :

ان ثورة أبى ركوة وغزوه لمصر كانتا من أعظم وأخطر الأحداث الخارجية فقـد كان داعية قويا وكاد أن يزعزع أركان الدولة الفاطمية ويقضى عليها .

من هو أبو ركوة :

هو أموى من ولد هشام بن عبـد المـلك يحمل ركوة على كتفه ولـذا سمى بأبى ركوة ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ويقول الرواة أنه سليل بنى أمية الأندلسيين وأنه ولد هشام بن عبـد المـلك بن مروان اسمه الوليـد وكان صوفيا(١٤) .

---

(١٣) ركوة : زمزمية : ماء يحملها على ظهره للوضوء على الطريقـة الصـوفية .

(١٤) البـداية والنهاية جـ ١١ ص ٣٢٠

لماذا حضر الى مصر :

يقول عماد الدين أبى الغـذاء اسماعيل القرشى الدمشقى فى سبب مجيئه الى مصر « أنه سمع الحـديث بالديار المصرية ثم أقام بمكة ثم وصل الى اليمن ثم دخل الشام وهو فى غصون ذلك يبايع من انقاد له يرى عنـده همة ونهضة للقيام فى نصرة ولد هشام ثم أنه أقام بعـد ذلك ببعض بلاد مصر فى محلة من محال العرب ليعلم الصبيان ويظهر التقشف والعبادة والروع ويخبر بشىء من الغيبات ثم خضعوا له وعظموه ـ فدعا الى نفسه وذكر لهم أنه يدعى اليه الأمويين فاستجابوا له وخاطبوه بأمير المؤمنين ولقب بالثائر بأمر اللـه المنتصر من أعـداء اللـه ٠٠ وخطب بالناس يوم الجمعة ولعن الحاكم فى خطبته(١٥) ٠

ويبـدى ابن خلدون ريبة فى نسبه أبى ركوة وفى دعواه أنه سليل بنى أمية ولكن ليس هـذا موضوع بحثنا على كل حال ، ولقـد قطع مرحلة التجوال والاستطلاع والدرس وعنـدما سنحت له الفرصة للدعوة والعمل كشف عن شخصه وأظهر نسبه ودعا الى عمه هشام المؤيد الأموى ٠

« وزعم أنه يملك مصر ويقوم على أسس من العـدل والتقوى » ٠٠

سار أبو ركوة على هـذا الدرب ردحا من الزمان حتى زادت قوته وقوى نفوذه وزاع سيطه وارتفع بين الناس قـدره ، والتفوا حوله وانضم اليـه المنبوذون والمضطهدون من الحاكم بأمر اللـه ، وعقـدوا العزم على تقويض عرشه والقضاء عليه ، وعاهـد الأتباع قائدهم على الجهاد فى سبيل اللـه على أن يكون له ثلث الغنائم ولهم الثلثان ٠

عنـدئذ شعر حاكم برقة بالخطر الداهم وهم بقمعها والحاكم فى ثبات عميق فلم يشعر بعظم الخطر وجلال الموقف بل استهان بالامر فتمادى أبو ركوة فى صلفه وغطرسته وهاجم برقة هجوما عنيفا وانتصر أبو ركوة وأصاب الخسران جيش الحاكم بأمر اللـه بسبب اهماله وغفلته ودخل أبو ركوة برقة منتصرا ظافرا وبسط سلطانه عليها سنة ٣٩٥هـ ٠

شـد النصر أزر أبو ركوة وأحس فى نفسه بالتفوق والقوة وتطـاول على الحاكم وأهله فى خطبته وشهر به وبنسبة الزائف الوضيع ٠ وهرعت اليه الجماعات والأفراد يؤيدونه ويؤازرونه ٠

تملك الحاكم الذعر بعـد أن تطورت الأحـداث وتفاقمت المعضـلات وأرسل المـدو الى برقة لمحاكمة الثائر واسترداد ملكه السليب ولكن ابو ركوة

(١٥) البـداية والنهاية : ج ١١ ص ٣٢٠

كان قد أسرع للقائه فتقابل الجمعان فى واد مقفر منه برقه .. وكان الثوار قد طمسوا آباره فأجهد العطش المصريين فضلاً عن خروج بعض الخونة على الحاكم وانضموا الى جيش أبى ركوة فازدادت قوته ودارت الدائرة على جند مصر وأسر قائدهم « ينال » وقتل ، وأصابهم الهول والفزع وأصابتهم الهزيمة وعاد الثائر الى برقة مؤزرا بالنصر محملا بالغنائم ، متطلعا الى امتلاك مصر والاستيلاء عليها وخاصة أن الظروف سانحة والامكانيات كثيرة فضلا عن وجود خونة يساعدونه ويمهدون له الطريق فأرسل الى الصعيد سراياه فلم تلق مقاومة فأعطاه ذلك الأمل وخاصة أنه رأى أن الباب أمامه مفتوحا .

سار أبو ركوة بجيشه العرمرم وجموعه الجرارة نحو صعيد مصر وعاهد خلفاؤه على أن يقتسموا تراث الدولة الفاطمية فتكون مصر من نصيبه والشام من نصيب العرب ، ولقد كان هذا الزحف خطيرا بل أكبر خطورة من خطر زحف القراطمة عليها ، ولكن هذه الحشود الزاحفة كانت مهلهلة غير منظمة فضلا عن أن الجنود كانوا خليطا عجيبا من الأنصار والبدو والمغامرين والمرتزقة لا يجمع بينهم وحدة ولا ألفة ولا صلة الا رابطة المصلحة الشخصية .

شعر الحاكم لفداحة الموقف وجلل الخطر الذى يهدد الدولة وأحس بالعرش يهتز تحت قدمه ، فأعد العدة وجهز جيشا واستقدم فيه من الشام جندا ووضع على رأسه الفضل بن عبد الله سنة ٣٩٦هـ والتقى الفريقان فى كوم شريك قرب الاسكندرية ودارت المعارك حامية الوطيس قتل فيها الكثير من الفريقين ورجحت كفة الهاجمين وارتد الفضل صوب القاهرة بجنده وخيم الدمار والموت على الناس واشتد به الرعب والخوف ورحل الجيش الى الهرم وقابل الجيش الثانى بقيادة على بن فلاح الذى ارتد تجاه صحراء الفيوم وتبعه بقواته بعد أن نظمها وأعاد اليها الثقة وعززها بالمدد واستؤنف القتال وحمى وطيسه وكان الفصل فى اليوم الثالث من ذى الحجة سنة ٣٩٦هـ وهزم أبو ركوة وتشتت شمل رجاله وتفرق جمعهم وقتل من جنده الكثير وارتد الثائر جنوبا والفضل يطارده حتى حدود النوبة ثم قبض عليه وأرسل الى القاهرة فسر الحاكم بذلك وخلع على الفضل وغمره بعطفه وأعلن النصر واطمأنت النفوس واستقرت الأحوال .

التمس أبو ركوة الصفح من الحاكم وأبدى جزعا وخنوعا ولكن الحاكم لم تأخذه به رأفة ولم يثنه معسول الكلام عن عزمه وقرر اعدامه حتى كان جثة هامدة .

وهكذا استطاع الحاكم بعزمه وصبره وقوته أن يقضى على أخطر الثورات وأعظمها بقلب ثابت ورباطة جأش كما استطاع أن يحافظ على كيان الدولة وسلامتها ولقد سجل له التاريخ ذلك .

الألوهيــة والحاكم بأمر اللــه

آلت مقاليــد الأمور الى الفاطميين وأصــبحت لهم خــلافة ذات طابع وصبغة مستقلة ، ونادوا بأنهم أصحاب حق فى الخلافة بل هى حقهم المقدس المسلوب منهم والمغتصب اغتصابا • ومنذ نهاية القرن الثالث الهجرى تأثر بمذهب الشيعة الأول بمؤثرات عــديدة وعظيمة كالفلسفة الاغريقية وعقــائد التناسخ والديانات المختلفة ومن ثم أصبح مذهب الشيعه خليط من الدين والفلسفة وليس ذلك فحسب بل نشأ من ذلك مذاهب وطرائق قــددا كالدرزيه والحشاشين وغيرهما من العقائد التى ظهرت آثارها عبر عهود حكامهم عامة وحكم الحاكم خاصة •

كان الحاكم بأمر اللــه عصب الحياة وروحها ابان حكمه سواء فى الدولة أو المجتمع ورغم الحياة المضطربة والقلاقل المضنية كان يحيا لنفســه حيــاة عقلية وروحيــة •

وفى أوائل سنة ٤٠٨هـ ظهر فى آفاق القاهرة رجل يدعى حمزة بن على بن أحمــد الزوزنى ، دعا الى الوهية الحاكم بأمر اللــه وشرح دعواه فى عدة كتب ورسائل وجعل دعواه سرا ردحا من الزمن حتى سنحت الفرصة وجاهر بدعواه على الملأ داعيا الى عبادة الحاكم وتناسخ الأديان والشرائع وبالحلول كما زعم أن الحاكم ليس بشرا وانما رمز حل فيه الاله والتفت حوله شرزمة كبيرة من غلاة الشيعة الاسماعيلية وتلقب بهادى المستجيبين ولقب الحاكم بـ « قائم الزمان » •

كثر أتباع هــذا المــدعى وزاع سيطه ، وملأ الأســماع أمره ويقول المؤرخون أن الحاكم أولاه رعايته بصورة واضحة وأرسل اليه والى مريديه السلاح ليدافعوا عن أنفسهم هــذا من جانب وعلى الجانب الآخر تمــادى حمزة فى غيه فاتخــذ له بطانة قوية ودعاه ورسلا •

ومما لا شك فيه أن يظهر فى الآفاق من الرسل والدعاة والتلاميذ طامعين ومتسلقين منهم متطلعين الى المجــد والمقام الرفيع وفى مثل هــذه المجالات ينقلب الرسل بعضهم على بعض ويغلب عليهم روح التنافس وكان الأمر كذلك فظهر الدرزى الذى كان خليفة لحمزة وراعية له وانقلب عليه ونافسه وخاصمه كما قرر المؤرخون •

ويقول الأنطاكى فى كتابه وهو مؤرخ معاصر أن أول من ظهر منهم فى سنة ٤٠٨هـ وأول من أذاع دعوة الوهية الحاكم ثم ظهر حمزة بعد مقتل الدرزى و فىنفس العام »(١٦) ٠

ويقول الوزير جمال الدين فى أخبار الدولة المنقطعة « أن الأحزم كان أول من ظهر بمصر من هؤلاء الدعاة وأول من بث دعوة الألوهية وأن ظهوره بالدعوة كان فىسنة ٤٠٨هـ وقد قرر ذلك فى خاتمة رسالته الأولى والمسماة « بالنقض الخفى » ٠

وظهر حسن بن حيدرة الفرغانى المسمى بالأحزم بمدينة القاهرة عقب ظهور حمزة بقليل ودعا مثل ما دعا اليه حمزة من التناسخ والحلول وألوهية الحاكم وذاعت دعوته بسرعة فى جماعة من المغامرين والمرتزقة فاستدعاه الحاكم وخلع عليه وأركبه فرسا وسيره فى موكبه وأولاه وعطف عليه ٠

ولكننا نجد أن محمد بن اسماعيل الدرزى أقوى رسل حمزة وأشدهم عزما وجرأة وكان يسير على طريقة حمزة فى الدعوة الى التناسخ والحلول - ويزعم أن روح آدم قد انتقلت الى على بن أبى طالب ثم انتقلت روح على الى الحاكم صفوة سلالته وشرح الدرزى دعوته وأصول مذهبه فى رسالة قدمها الى الحاكم فقربه وأغدق عليه العطايا وارتفعت لديه منزلته واشتد نفوذه حتى غلا ٠٠ وسمى الدرزى نفسه « سند الهادى » وحياه المستجيبين والهادى هو حمزة كما رأينا وفى ذلك ما يدل على أن حمزة هو السابق والدرزى هو اللاحق وأن الرجلين فى البداية على الأقل خلقتين يعملان لبث الدعوة معا بمنتهى التعاون والوفاق(١٧) ٠

وقد كان هؤلاء وغيرهم اذا صادفوا الحاكم فى ركبة قالوا « السلام عليك يا أحد يا محيى يا مميت وغيرها من الألفاظ التى جعلت الحاكم يعتقد تمام الاعتقادات أنه ارتفع الى مستوى الألوهية كما ارتفع عن سائر البشر ٠

وقد أفاض آية زولاق عن ادعاء الحاكم للالوهية « ذلك الخليفة الذى كانت تملك نفسه الرغبة التى استولت كاليجولا » من قبل أن يجعل نفسه فى مصاف الآلهة فذكر أن الحاكم اتخذ لنفسه جواسيس من النساء يتدسسن فى دور بعض أناس مخصوصين وكان من واجبهن أن يكتشفن ما يحدث

---

(١٦) الأنطاكى : ص ٢٢٠ ، ص ٢٢٣ ، الفاطميون فى مصر : ص ٢٠٥ ، ص ٢٠٦

(١٧) الحاكم بأمر اللـه : ص ١١٦

فيها ثم يقــدمن تقاريرهن عن ذلك اليه فى اليوم التالى ٠٠ فاذا ما أصبح الخليفة استدعى هؤلاء الناس للمثول بين يديه ويخبرهم بأمرهم وما حــدث فى دورهم ولم ينسى أن يتخــذ جواسيس آخرين مهمتهم أن يقــدموا اليــه بتقارير بكل ما يحــدث فى الطرقات وكان نتيجة هــذا وذلك أن أصــبح بعض الناس يعتقــدون أنه يعلم الغيب ٠

وهكــذا امتلأت كتب التــاريخ بعــديد من القصص والحواديت التى تشير الى ادعاء الحاكم بالألوهية ٠

والحق واللــه أعلم أن الحاكم بأمر اللــه براء مما نسب اليه وأن نظرة دقيقة فاحصة عبر وريقات التاريخ واعادة قراءة ما سطره المؤرخون المعاصرون للحاكم بأمر اللــه والذين جاءوا بعــدهم ليتسعر صــدقا وحقا بالافتراء على هــذا الخليفة المؤمن باللــه الزاهــد العادل لا كما أقول ولكن كما سطروا بأيديهم عنــه ٠

لو وضعنا ما قالوه موضع البحث والتنقيب لرأينا الافتراء ظاهرا بارزا واضحا وضوح الشمس وضحاها ٠

وبادىء ذى بدء لقــد اختلف المؤرخون فيمن كان أول داع بألوهيــة الحاكم أهو حمزة ، أم الدرزى ، أم أحزم أم سواهم من عشرات الدعاة الذين ورد ذكرهم فى مختلف كتب المؤرخين وكلهم معاصرون للحاكم وفى سنة واحدة هى سنة ٤٠٨هـ وكل أطلق على نفسه بهادى المستجيبين أو سند الهادى وحياه المستجيبين أو غيرها من الأسماء المتشابهة ٠

ثم قالوا أنه اتخــذ لنفسه جواسيس من النساء يقــدمن اليه تقاريرهن ليواجه بها أصحابها عنــد المثول بين يديه ايهــاما لهم بأنه يعلم الغيب والأسئلة التى تطرح نفسها بهــذا الصــدد لا تعــد ولا تحصى كم امرأة اتخذها الحاكم جاسوسا ؟ ، وهل كن يعرفن القراءة والكتابة حتى يقــدمن تقاريرهن وأين يقــدمنها له ؟ أفى قصره ؟ أم فى أى مكان وهل كن يتجمعن عنده وكيف كان يختار هؤلاء النساء ؟ وهــذا يتعارض تماما مع ما كتبوه عنه من أنه منع خروج النســاء ٠

سؤال آخر يطرح نفسه وكأنه يصرخ عاليا ؟

يقول المؤرخون فى موضوع الألوهية أن الشعب أيقن أن للخليفة قــدرة خارقة للعادة وأن اللــه اصطفاه من شجرة النبوة السامقة وليحكم بين الناس

بروح من عنـــده فعليهم السمع والطاعة لأن حكمه هو الحق والعـدل والملهم من عنـد اللـــه سبحانه وتعالى فللامام عنـد الفاطميين صلة روحية باللـه من جنس الأنبياء والرسل ولقـد تعالت الرعية فى تقـديس الخليفه فلثموا قـدميه ويديه مهما عظم شأنهم ومركزهم على مرأى من الناس وقبلوا الأرض بين يديه وقاموا وقوفا كلما ذكر اسمه فى الخطبة أو مرت أمامهم فى الطرقات وركعوا وسجدوا عنـد رؤيته واعتبروا تقبيل ردائه سرفا عظيما ٠

والقارىء للفقرة السابقة يرى التناقض فيها بارزا جليا واضحا كيف يقولون أن اللـــه اصطفاه من شجرة النبوة كما جاء بمطلع الفقرة ثم يقولون ، وركعوا وسجدوا عنـد رؤيته فى آخرها ؟ وكيف يكون ؟

ومن عجب بأن هؤلاء المؤرخين أنفسهم الذين قالوا كمـا جاء بهـذه البحاثة من قبل أن الحاكم يتمتع بخصلة أجمع عليها المؤرخون وعلى الاشادة بها تلك هى زهـده وتقشفه فى حياته العامة ثم تواضعه المؤثر واحتقـاره للألقاب الفخمة التى تحيط بالخلافة الاسلامية ، وكان أول حكمه منع الناس كافة من مخاطبة أحـدبـ سيدنا ومولانا ، وأصـدر أوامره ألا يقبل أحـد له الأرض ولا يقبل أحـد ركابه ولا يده عنـد السلام اذ لا يجوز الانحناء الى الأرض لمخلوق وانما هى بدعة من صنع الروم لا يحـل أن يجيـزها أميـر المؤمنين ويكفى فى السلام الخلافى أن يقال (السلام على أمير المؤمنين ورحمة اللـه وبركاته) ٠

أى تناقض هـذا الذى وقع فيه المفترون ليظهر اللـــه الحق ٠ كيف يكون ذلك ؟ كيف يمنع أمير المؤمنين أن لا يقبل يده ولا ركابه كما يمنع انحناء الرعية الى الأرض أمامه ويصـدر مرسوما يوضـح فيـه أسلوب السـلام الاسلامى ثم بعـد ذلك يدعى الألوهية أنه افتراء أنه كـذب انها فرية على الحـاكم ٠

« انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصـدور » ٠

ان سيرة الحاكم العطرة وتاريخه الوطنى من عـدل وتصرف وزهـد وتواضع لدليل بين على ما افتراه عليه المغرضون الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويفترون على الصالحين والمؤمنين الكـذب والزور والبهتان ٠

لكى نتوخى الحقيقة والعثور عليها والجرى وراء الأسانيد التاريخيـة الصادقة ، أمر غير يسير بل هو أمر بعيد المنال الا اذا ألقت الصدفة الحقيقية فى طريق المؤرخ أو الباحث ، ولكن بتفنيـد لآراء المؤرخين وتمحيص وتدقيق

ونظرة عمق وارادة صادقة للوصول الى الحقيقة ألهمنا الحق جل جلاله الى جلاء هذا الموقف ورفع التهمة التى انقضت ظهر تاريخ الحاكم المفترى عليه والحق سبحانه يقول : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » ..

(صدق الله العظيم)

العلم والعمـران والحاكم

أنشأ الحاكم دارا للعلم سنة ٣٩٥هـ سماها « دار الحكمة » كانت رمزا للدعوة الشـيعية على غرار مجـالس الدعوة التى كانت تسـمى « مجـالس الحكمـة » •

يقول فيها المسيحى « فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها الفقهاء وحملت اليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ودخل اليهـا الناس ـ ونسخ كل من التمس نسخ شىء مما فيها ما التمسه وكـذلك من رأى ـ قراءة شىء مما فيها ، وجلس فيها القراء وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعـد أن فرشت هـذه الدار ، وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها النور ، وأقيم قوام وخـدم وفراشون وغيرهم ، وسموا بخدمتها ـ وجعل فى هـذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللـه من الكتب التى أمر بحملها اليهـا من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعا لأحـد قط من المـلوك •

وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قـراءة الكتب والنظر اليها • وحضرها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر (١٨) •

وفى سنة ٤٠٣هـ • أحضر الحاكم جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق ، وجماعة من الأطباء ـ وكانت كل طائفة تحضر على انفراد للمناظرة بين يديه ثم خلع على الجميع وصرفهم • ووقف أماكن فسطاط مصر عليها فضلا عن الجامع الأزهر والمسجد الجامع « جامع عمرو بن العاص » الذى كانت حلقاته العلمية والأدبية عنصرا بارزا فى تكوين الحركة الفكرية وقتئـذ •

ولقـد أولى الحاكم الحركة الفكرية والعلمية والأدبية جل رعايته فأجزل العطايا وعقـد مجالس المناظرة العلمية والأدبية ، وقرب اليه اقطاب المفكرين والأدباء مثل المسبحى الكاتب المؤرخ الكبير ومحمـد بن قاسم بن عاصم شاعر الحاكم وحبيبه وجليسه •

---

(١٨) المقريزى عن المسيحى جـ ٢ ص ٣٣٤ ـ النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٢٢.

يعتبر عصر الحاكم بأمر اللـه عصر ازدهار للعلوم والشعر والنثر الذى تميز بروعته وبراعته وافتنانه ولقد كان من أشهر شعراء هذا العصر أبو الحسن على بن محمد صاحب كتاب الديارات وابن يونس العلامة الرياضى والفلكى والأديب والشاعر وهو الذى كتب تاريخا لمصر ، ولقد تعددت فى عهد الحاكم قيادات الحركات الفكرية والعلمية وكان على رأسهم الحاكم بأمر اللـه نفسه وغيره كثيرون ٠

والتاريخ فى عهده تحدث عن كثير من كبار المحدثين واللغويين وأئمة الأدب وقادة العلوم والفكر ٠

ولقد قيل أن الحاكم كما أنه قد خلف ثروة علمية قد خلف ثروة مالية طائلة من الذهب والفضة كما أنه قد ورث عن عمته التى ماتت أيام حكمه ما قيمته ألف ألف وسبعمائة ألف دينار فضلا عما وجد فى خزائن كسوتها ٠

وقد استشهد المؤرخون على كثرة ماله بما خلفته ابنته ست مصر بعد موتها من أشياء كثيرة يطول الشرح فى ذكرها ويعجز القلم عن وصفه ٠

وحقيقة الأمر أن ما ورثه أو خلفه الحاكم ليس من الأمر فى شىء لأنه عرض زائل وليس موضوع بحثنا هذا ان قل أو كثر ٠

النهاية •• والحاكم بأمر اللـه

كمـا تعـددت الأقاويل حول حيـاة الحاكم وألوهيتـه ، وكما أحاط تاريخه أساطير الغرابة كـذلك أحاطت نهايته عجائب شتى ومآسى وغرائب عـديدة •

ان نهاية الحاكم أحاطت بها ظروف غامضة ووقائع واضطرابات وروايات أكثر غموضا وغرابة ، ويعتقـد المؤرخون أنه ذهب ضحية مؤامرة سياسية وتدبير جريمة أدت الى مصرعه لتحقيق غاية ما ، وهـذا ما قررته بعض الروايات المعاصرة •

ويطفو على السطح أسئلة عديدة :

- من دبر هـذه المؤامرة ؟
- من قام بتنفيـذها وكيف ؟
- وأين ذهبت جثة الحاكم ؟

ولا ريب قـد أغتيل الحاكم بأمر اللـه بتدبير من داخل القصر فأدى ذلك الى طمس الحقائق واختفاء شخص المـدبرين والمنفـذين وتقول بعض الروايات أن مصرع الحاكم كان من تدبير أخته ست الملك(١٩) ويرجع ذلك الى أسباب عميقة وبعيـدة منـذ تولى الحاكم الملك بعـد وفاة العـزيز باللـه ، وكان لها دور فعال وكبير فى ادارة شئون الدولة وتوجيه سياستها فى بداية عهـد الحاكم حيث أنها كانت تمـده بصائب الرأى وحسن المشورة ودقة التـدبير فى كثير من أمور الدولة ويقول المؤرخون ، أنها كانت تسهر على سلامته كما تسهر على سلامة ملكه ، ولـما استأثر الحاكم بالسلطة ، وشل حركتها وزاد الطين بلة كما يقولون أنه طعنها فى عفتها وشرفها وأغضبها وكان يردها بغليظ القول فحقـدت عليه وعقـدت العزم على الخلاص منه ، ونظرت ست الملك جولها لتنفيـذ الجريمة فلم تجـد غير سيف الدولة « الحسين بن داس » واتفقا معا وسرا وجعلا لتدبيرهما سببا ظاهرا ما وصلت اليه حال البلاد من الفوضى وسوء الحكم وما يهـدد البلاد والاسلام كله من خطر التمزق والفرقة والضياع بسبب سوء تصرفات الحاكم وغيه وجبروته وانه لا سبيل الى الاصلاح الا بقتله وتوليه الحكم بعـدة ولده •

---

(١٩) أنظر أقوال الرواة والمؤرخون ص ١

لبى ابن دواس دعوة ست الملك التى أخذت عليه موثقا بالوفاء والكتمان ووعدته بأنه سيكون مدير أمر الدولة وصاحب الكلمة ، فأعد العدة لتنفيذ جريمته الشنعاء التى باع فيها ضميره ودينه ودنياه بثمن أقل من القليل ، وعهد ابن دواس الى عبدين مخلصين له وأنعمت عليهما ست الملك مالا وحليا كما زودتهما بسكينين ماضيين - واتفقوا على أن يكون التنفيذ عندما يخرج الحاكم الى المقطم ليلا فى الليلة التالية ، وكما نعلم كان الحاكم شغوفا بالطواف ليلا لاستطلاع أمر رعاياه والوقوف على حياة الأمة · وفى ليلة ٢٧ شوال ٤١١هـ الموافق ١٣ فبراير سنة ١٠٢١ خرج الحاكم كعادته لتفقد الأحوال وسار الى تل المقطم تحت رقابة أخته ست الملك فأخذت أهبتها وأعدت عدتها وقد سبقها الجناة الى فريستهم وما أن وصل الحاكم الى مكان قدره شرقى حلوان حتى خرج عليه العبدان من مكمنهما وانقضا عليه وأسخناه طعنا وطرحاه أرضا وأردياه قتيلا وقد أزهقت روحه الى بارئها ودعتهم الوحشية الى قطع ذراعه واستخراج أمعائه وقتل الصبى المرافق له وقطعا قوائم الحمار وحملا أشلاءه الى سيدهما الذى رافقهما الى ست الملك وسلموها اياها فدفنتهما فى نفس المجلس وأنعمت عليهم بمال وتحف ودعت كبير وزرائها أبا الحسين عمار بن محمد وأخطرته بما وقع واستخلفته بالكتمان والطاعة وأمرته باستدعاء ولى العهد وأخذت كل الأهبة لمدارات سوءتها واخفاء جريمتها ·

وبعد أن تخلصت ست الملك من الحاكم كان ولابد أن تتخلص أيضا من شركائها فىجريمتها حتى يظل الأمر سرا وعلى الكتمان فبعد أن أخذت البيعة للخليفة الطفل أبى الحسن على ابن الحاكم بأمر الله فى العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١هـ استدعت ابن دواس الذى انقض عليه رجالها وقتلوه وعبديه كما قضت على الوزير خطير الملك ولم تترك أحدا ممن وقف على السر الا قتلته ·

وهكذا ذهب السر والجناه معا والى الأبد ·

ولقد استدلت بعض الروايات بل أجمعت على براءة ست الملك فلقد قال القصاعى - وهو مؤرخ معاصر وقد كتب روايته بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما مضيفا اليها :

« ولما لم يعد الحاكم كعادته فى صباح اليوم التالى خرج القضاة والأشراف والقواد الى الجبل فبحثوا عنه حتى آخر النهار ولم يعثروا عليه ، وكرروا الذهاب على هذا النحو ثلاثة أيام دون جدوى وفى اليوم الرابع خرج قطغر صاحل المظلة « ونسيم » صاحل الستر ولبن سكين صاحب الرمح

وعـدد من زعماء الجنـد والقضاة ورجال الدولة وتوغلوا فى شعب المقطم حتى بلغوا دير القصير على مقرب من حلوان وعكفوا على البحث والتنقيب حتى عثروا على حمار الحاكم الأشهب وقـد قطعت ساقاه الأماميتان وعليه سرجه ولجامه فتتبعوا الأثر ٠٠ فاذا أثر رجل خلف حمار ٠٠ كما أنهم عثروا على الثياب أيضا وبها عـدة آثار لضرب الخناجر وما الى ذلك(٢٠) ٠

ولما علمت ست الملك بذلك تأثرت تأثرا عظيما وبدا عليها الحـزن الشـديد وأقامت عزاءه بالقصر ثلاث ليال واستدعت من تحوم حولهم الشبهات وقتلتهم ٠

وينفرد الأنطاكى برواية فيقول :

أنه قـد اعترض الحاكم سبعة من البـدو التمسوا منه الصلة بجفـاء وغلظة فأجابهم بأن لا يحمل مالا يدفعه ولكنه يرسلهم الى بيت المـال وأخيرا اشتد الجـدل والنزاع وانتهى الأمر بأن ذهب أربعة ومعهم الركابى وتخلف ثلاثة منهم ثم عاد الركابى بعـد أداء مهمته يبحث عن سيده فى المكان الذى اعتاد أن ينتظره فيه فطال بحثه دون جـدوى حتى لقيه مساح بالجبل فسأله وذكر له صفة الحاكم وصفة حماره فأخبره أنه رأى هـذا الحمار فى طريقه فسار معه الى الموضع الذى شهده فيه ٠

وفى صباح اليوم التالى سارت الأميرة ست الملك وجميع الأمراء والقواد الى الجبل يتتبعون أثر الحاكم حتى وصلوا الى دير القصر وبحثوا فى الدير وجميع المواضع التى كان يرتادها فلم يقفوا له على خبر ٠ ثم عثروا على ثيابه وبها آثار الطعان والدماء ولم يجـدوا جثته ٠ فاستدلوا بذلك على أن البـدو الثلاثة الذين تخلفوا عن رفاقهم هم الذين قتلوه ودفنوه فى الجبل ثم أخفوا أثره واتجهت مظنة التحريض الى ابن دواس وكثر فى حقه القيل والقال فعملت ست الملك على استدعائه الى القصر حيث قتل ووجـدت ست الملك فى بعض صناديقه السكين التى كان يحملها الحاكم فى كمه فثبت لدى الجميع حينئـذ أنه هو مدبر الجريمة ٠

ويقول المقريزى : أنه فى المحرم ٤١٥هـ قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى فأقر أنه قتل الحاكم بأمر اللـه فى جملة أربعة أنفس تفرقوا فى البلاد وأظهر من جلد رأس الحاكم قطعة وقطعة من القوطة التى كانت عليه فقيل له : لم قتلته ٠٠ فقال غيره للـه وللاسلام فقيل له : كيف

---

(٢٠) النجوم الزاهرة : جـ ٤ ص ١٩٠ ، ص ١٩١

قتلته .. ؟ فأخرج سكينا ضرب بها فؤاده وقتل نفسه وهو يقول : « هكذا قتلتــه » .

والحقيقة أن هناك روايات شتى وقصص عديدة عن مقتل الحاكم بأمر اللــه وكما رأينا فان الغموض يضرب أطنابه على حياة هــذا الرجل كمــا أحاط به فى موته .

ومن عــديد الروايات السابقة وبنظرة فاحصة مدققة نرى أن ســت المــلك براء من قتل أخيها كما أن الرواية التى تقول أن الحاكم طعنها فى شرفها وعفتها رواية لا يقبل بها عقل ولا يصــدقها انسان وقــد بلغت ست المــلك من العمر عتيا والاتهام لها بهــذه الصورة الخلقية بعبــد عن الواقع والافتراء فيه ظاهر بين .

وحقيقة الأمر واللــه أعلم أن الحاكم بأمر اللــه خرج كعادته لتفقــد أحوال رعيته وساقه حماره الى مكان قصى بعيــد عن العمران وقــد كان غائب الذهن ، شاردا فى أمر يشغله فالتقى بجماعة من قطاع الطرق . وكان الحاكم كما نعلم زاهــدا صوفيا متواضعا ، وليس عليه علامات المــلك والخــلافة فظنوه من عامة العامة ، وأرادوا أن يجردوه من ماله ولم يكن معــه مال . فقتلوه خشية اكتشاف أمرهم وحرصا على حياتهم ، وأصــدق القول تنفيــذ لقضاء اللــه وقــدره وهكــذا طوت الأقــدار صفحة عطرة لحياة الحاكم بأمر اللــه بعــد عمر حافل بجليل الأعمال وكما أن الغموض والتناقض قــد خيما على تاريخ الحاكم كــذلك خيما على خاتمة حياته ونهايته « وكل نفس ذائقة المــوت » .

المراسيم الاجتماعية الدينية

فى سنة ٣٩٥هـ أصدر أمره للنصارى واليهود بلبس الغبار وشد الزنار ، ولبس العمائم السود ، وأن يعلق النصارى فى أعناقهم صلبانا ظاهرة من الخشب طول الواحد منها ذراع فى ذراع ووزنه خمسة أرطال ، وأن يعلق اليهود فى أعناقهم قرامى من الخشب زنتها خمسة أرطال أيضا ٠ وأن تختم هذه الصلبان والقرامى بخاتم من الرصاص يحمل اسم الخليفة وحرم على الفريقين معا ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم الحمير والبغال بسرج من الخشب وسيور سود عاطلة من حلية ، وألا يستخدموا مسلما أو يقتنوا عبدا مسلما أو جارية مسلمة ٠

فى ربيع الآخر سنة ٤٠٣هـ - ١٠١٣م صدر سجل بهدم جميع الكنائس بالديار المصرية وهذا نص المرسوم وقد صيغ فى تلك العبارة الموجزة كما يقول المؤرخون :

« خرج أمر الامامة اليك بهدم كمامة فاجعل سماءها أرضا وطولها عرضا » - وتزيد الرواية الكنسية فتقول أن الذى كتبه كاتب نصرانى يسمى ابن تشترين وأنه توفى بعد كتابته بأيام قلائل ندما وحزنا ٠

يقول الأنطاكى(٢١) : « لما رأى الحاكم أن الأمر قد اشتد على النصارى ، وأنهم يفرون الى بلاد الروم أو الحبشة خففت وطأة المطاردة وصدرت عدة قوانين فى سنة ٤١١هـ بالغاء هذه القوانين اليك منها مرسوم شامل :

بسم الله الرحمن الرحيم ٠٠

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الامام الحاكم بأمر الله امير المؤمنين بن الامام العزيز بالله أمير المؤمنين لجماعة النصارى بمصر عندما انهوا اليه الخوف الذى لحقهم والجزع الذى هالهم فأقلقهم واستذأذرهم بظل الدولة ، وتحرمهم بحضور الحضرة بما رآه وأمر به من

---

(٢١) الانطاكى فى تاريخه : ص ٢٣٢ والحاكم : ص ٧٣ ، ٧٤

كتاب مفتاح الذهب وتاريخ ملوك الاسلام وخلفاء العرب ، خطط المقريزى جـ ٣ ص ١٧٦

تكميل النعمة عليهم بتوخيه لهم ذمة الاسلام وشرعه من نصيرهم تحت كنفه بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة ، وتصفو عليهم ملابس السكون والدعة واجابتهم الى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الأحقاب ، ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب فأنتم جميعا آمنون بأمان اللـه عز وجل وأمان نبيه محمـد خاتم النبيين وسيد المرسلين(صلعم) وعلى آله الطاهرين وأمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب سلام اللـه عليه وأمان الأئمـة من آباء أمير المؤمنين سلام اللـه عليهم • هـذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم وماتحتويه أيديكم احسانا صريحا ثابتا ، وعقـدا صحيحا باقيا فثقوا به ، وأسكنوا اليه ، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ونصرته تحكيم وعصمته تقيكم ، لا يتقـدم عليكم بسوء أحـد ، ولا تتطاول اليكم بمضرة يد الا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعة وعظم انكاره مضيقا فيه ذراعه ، واللـه عون أمير المـؤمنين على ما تعتقـدون من صلاح واصلاح لسكان أقطار مملكته ، ومن له وسيلة الثواء فى كنف دولته ، واياه يستشهد على ما أمضاه من أمانة لكم وعهـده الذى يشرفه طرفكم ، وكفى باللـه شهيدا ، وليقرر فى أيديهم حجة بما أصبح من النعم عليهم ان شاء اللـه تعالى » •

فى سنة ٣٩٨هـ صـدر مرسوم يقرر بعض الأحكام ويفسرها على أثر ما وقع بين الشيعة ومذهب أهل السنة من خلاف وشغب وهو مرسوم يشف عن روح العصر ويحمل التوفيق بين المذهبين هـذا نصه بعـد الديباجة :

••• « فأما بعـد •• فان أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب اللـه المبين • (لا اكراه فى الدين) •• مضى أمس بما فيـه ، وأتى اليـوم بما يقتضيه • معاشر المسلمين • نحن الأئمة وأنتم الأمة •• من تشهد الشهادتين •• ولا يحل عروة بين اثنين ، تجمعهما هـذه الأخوة عصم اللـه بها من عصم وحرم عليها ما حرم ، من كل محرم من دم ومال ومنكح ، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح ، والفساد والافساد من العباد يستصبح ، يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر ويعرض عما انقضى فلا يذكر ، ولا يقبل على ما مر وأدبر من اجراء الأمر على ما كانت فى الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتـدين ، سلام اللـه عليهم أجمعين ، مهـديهم باللـه ، وقائمهم بأمر اللـه ومنصورهم باللـه ، ومعزهم لدين اللـه ، وهو اذ ذاك بالمهـدية والمنصورية ، وأحوال القيروان تجرى فيها ظاهرة غير خفية ، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية ، يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ، صلاة الخميس للذين بها جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح ولا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون ، يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنـع من التكبيـر عليهـا

المربعون ، يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ، لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف ، والخالف منهم بما خلف ، لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده ، والى اللـه ربه ميعاده ، عنده كتابه وعليه حسابه ، ليكن عباد اللـه على مثل هذا عملكم منذ اليوم ، لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتده ، من جميع ما نصه أمير المؤمنين فى سجله هذا ، وبعده قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم ، الى قوله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » .

والسلام عليكم ورحمة اللـه وبركاته(٢٢) .

وقد حدثنا الذهبى عن فساد المرأة أيام الدولة الفاطمية فقال :

« مر قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى فنادته أمرأة وأقسمت عليه بالحاكم وآبائه أن يقف لها فوقف فبكت بكاء شديدا وقالت : « لى أخ يموت فما لك الا حملتنى اليه لأشاهده قبل الموت » فرق لها وأرسلها مع رجلين فأتت بابا . فدخلته وكان فى الدار الرجل الذى يهواها وتهواه ، وأتى زوجها فسأل الجيران فأخبروه بالحال فذهب الى القاضى وصاح قائلا : « أنا زوج المرأة وما لها أخ وما أفارقك حتى ترد الى زوجتى » .

فعظم ذلك على قاضى القضاة وخاف سطوة الحاكم . فأخبر أمير المؤمنين بعد أن طلب العفو منه ..

فأمر الحاكم الرجل أن يركب مع الرجلين فوجدوا المرأة والرجل فى ازار واحد نائمين على سكر ، فحملا الى الحاكم وباستجوابهما حملت الرجل التبعة ، وأنه حسن ذلك لها وباستجواب الرجل قال :

« انها هجمت على وزعمت أنها خلو من بعل وان لم أتزوجها سعت بى اليك لتقتلنى فأمر الخليفة الحاكم بأمر اللـه بالمرأة فأحرقت وضرب الرجل ألف سوط .

---

(٢٢) الحاكم بأمر اللـه : ص ٧٨ والفاطميون فى مصر : ص ٢٧٦

المصــادر والمراجع

١ ـ السيوطى :

حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة جـ ٢

٢ ـ ابن أياس :

بدائع الزهور : جـ ١١

٣ ـ الذهبى :

تاريخ الاسلام : جـ ٣

٤ ـ ابن خلكان :

وفيــات الأعيــان ٠

٥ ـ ابن خلـدون :

كتــاب المقـدمة ٠

٦ ـ أبو العباس أحمـد :

صــبح الأعشى ٠

٧ ـ المقــريزى :

المواعظ والاعتبار « الخطط والاثار » ٠

٨ ـ جمال الدين أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر جـ ٤

٩ ـ زكى محمـد حســن :

كنــوز الفاطميين ٠

١٠ ـ عطية مصطفى مشرفة :

نظام الحكم بمصر فى عهـد الفاطميين ٠

١١ ـ النــويرى :

نهاية الأرب فى فنون الأدب ٠

١٢ ـ ابن الأثيــر :

تاريــخ الكامل ٠

١٣ ـ محمـد عبـد اللــه عنــان :

الحاكم بأمر اللــه ٠

١٤ ـ أحمـد الســيد :

تاريخ مفتــاح الذهب فى ملوك الاسلام وخلفاء العرب ٠

الصناعة

في الجزيرة الفراتية إبان القرن السادس الهجري

تـــأليف

الدكتورة سوسن محمد نصر

كلية التربية - بنهـــا

جامعة الزقازيق

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م



تقديم

كانت الحياة الاقتصادية فى مدن الجزيرة الفراتية فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين تتوجها الزراعة والتجارة ، وعلى الرغم من ذلك فهناك اشارات غير قليلة الى أن الصناعة كانت تحظى بنصيب لا بأس به فى تلك الفترة ، فقد شهدت بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجرى وفرة فى رؤوس الأموال وفى المواد الأولية والمهارة الفنية والصناعية ، وانتقل العديد من الصناع المهرة اليها(١) مما جعلها مركزا حيويا يغطى احتياجات العراق ويزود بلاد الشام ومصر وبلاد فارس بسلع وبضائع مهمة ، كالمنسوجات والأثواب والآلات والأسلحة وغيرها ٠

ويوضح ما جاء به الجغرافيون والبلدانيون والمؤرخون عن صفات مدن الجزيرة الفراتية منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين الأسس التى قامت عليها تلك الصناعات وأسباب ازدهارها وتطورها وقتئذ ٠

ولنأخذ أمثلة على ذلك ـ وليكن :

أولا ـ المعادن : (ومنها النفط ـ الحديد ـ النحاس ـ الأحجار ـ الأملاح ـ رمل الزجاج) ٠

وقد أشار الاصطخرى فى القرن الرابع الهجرى الى جبل (بارما) وهو جبل تشقه دجلة فتجرى فى وسطه ويمتد الى وسط الجزيرة ، وفى الماء ستة عيون للقار والنفط(٢) ، وهذه الظاهرة الطبيعية وغيرها استمرت خلال القرن السادس الهجرى ٠

ويذكر ابن سعيد المغربى ، أن موقع تكريت وهى آخر مدن الجزيرة مما يلى العراق فى أرض يصنع بها النفط(٣) وجاء فى مراصد الاطلاع أنه بالقرب من خناقين وهى من مدن الجزيرة ، عين للنفط عظيمة كثيرة الدخل(٤) ٠

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٢١٥ ـ ابن الاثير ، البداية والنهاية : جـ ١٢ ص ١٩١ ، جـ ١٣ ص ٢١٤ ابن كثير ٠ تفاصيل ذلك فى كتاب صلاح الدين العبيدى ، التحف الموصلة فى العصر العباسى ص ٢٤ ، ص ٢٥

(٢) مسالك الممالك : ص ٧٥ : الاصطخرى ٠

(٣) بسط الأرض فى الطول والعرض : ص ٩٠ ـ ابن سعيد المغربى ٠

(٤) مراصد الاطلاع : جـ ١ ص ٣٣٦ ـ ابن عبد الحق ٠

والجـدير بالذكر أن هـذه المواطن التى تحـدثت عنها المراجع تمثـل فى الوقت الحاضر المستخرجات والمنابع الحـديثة للنفط فى العراق ، فالاشارة الأولى الى آبار النفط فى منطقة الموصل ، والثانية تمثل أبار النفط فى كركوك الحاليـة ٠

أما القار فيشير الى وجوده الشابشتى فى معرض كلامه عن دير القيارة فيقول : تحت عين قير ، وهى عين تغور بماء حار نضب فى دجلة ويخرج منه القير ، فما دام القير فى مائه فهو لين يمتـد فاذا فارق المـاء برد وجف(٥) ٠ ويقـدم لنا هـذا المؤرخ وصفا تفصيليا عن عملية استخراج القير ومعالجة سيولته ، لكى يسهل حمله والاستفادة منه وذلك بتجميـده فيذكر أن هناك قوما يجتمعون لجمع هـذا القير حيث يغترفونـه من مائه بالقفاف ويطرحونه على الأرض ، وكانوا يهيئون له القـدور الحـديدية الكبيـرة حيث يـذوب بالتسخين ويوضع فوقه الرمل الناعم المنخول ، ويخلط فاذا بلغ استحكامه قلب على الأرض قطعا مجمـدة فيصلب ويحمل الى البلدان وزاد بقوله أن هذا القير يستعمل لطلاء السفن وتبليط الحمامات وغير ذلك(٦) ٠

ويؤكـد ابن جبير هـذه المعلومة فى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٤م) حيث قال : « على يمين الطريق الى الموصل وحـدة من الأرض سوداء كأنها سحابة ، فيها عيون كبار وصغار تنبع بالقار وتضع له أحواض يجمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطا على الأرض أسود تقـذفه الى جوانبها فيرسب قارا ٠

وبمقربة من هـذه العيون على شط دجلة عين أخرى منه كبيرة ٠ وقال بأنهم كانوا يضربون فيها النيران لتخليصه من رطوبة المـاء وتجميـده بعد ذلك ليسهل تقطيعه ونقله(٧) ٠

ويؤكـد ياقوت استمرار تدفق القار فى هـذه المنطقة فى أيامه عنـدما يذكر دير القيارة ، فيقول بأنه مشرف على دجلة وتحتـه عين القـار التى يستخرج منها هـذا المعـدن بالطريقة التى ذكرها من سبقه(٨) ويشير ابن الاثير اليها بقوله أنها أعجوبة وهى شـديدة الحرارة ويسميها النـاس (عين ميمون) ويخرج مع المـاء قليل من القار(٩) ٠

---

(٥) الديارات ص ١٩٦ ـ الشباشى ٠
(٦) الديارات ص ١٩٦ ـ الشباشى ٠
(٧) رحلة ابن جبير : ص ٢٠٩
(٨) معجم البلدان : ج ٢ ص ٦٨٩ : ياقوت ٠
(٩) الكامل فى التاريخ : ج ١٢ ص ٤٦٦ : ابن الأثير ٠

وهناك من أشار الى وجود خامات الحديد فى بلاد الجزيرة الفراتية فقد ذكر ابن حوقل الى الشبابيك التى كانت تعمل من الحديد وتوضع حول العيون فى مدينة رأس العين(١٠) ٠ كما يذكر المقدسى توفر الحديد فى مدينة الموصل ، حيث تصنع منه السكاكين والسلاسل الحديدية(١١) واستمرت هذه الصناعات تتزود بالحديد المكتشف فى أرض ما بين النهرين (الجزيرة الفراتية) خلال فترة القرن السادس الهجرى فيشير ياقوت الى مدينة (جانى) المعروفة بمعدن الحديد حيث يستخرج منها ويجلب الى سائر البلاد(١٢) ٠

كما أن هناك ما يشير الى سباكة الحديد (أى صهره) حيث تعمل البواتيق من القار والمغرة والطين بالقرب من جبل البشر على حدود الجزيرة الفراتية من أرض الشام(١٣) وفى مدينة ميافارقين حيث كانت تستعمل قوالب لصب الحديد من الأحجار(١٤) ٠

كما أشير الى أن الحوانيت كانت لها أبواب وصفت بأنها مشط(١٥) من الحديد والمساجد لها شبابيك من الحديد(١٦) ٠

وهناك اشارة الى القوة المغناطيسية حيث قال ابن الفقيه بأن الجبل الذى يقع بالقرب من آمد ـ متى يحك به السكين أو السيف أو أى جسم من

---

(١٠) صورة الأرض : ص ٢٠٠ ـ ابن حوقل وذكر ناصر خسرو بأنه رأى احدى كنائس النصارى فى الجزيرة الفراتية وعليها باب من الحديد لم ير مثله فى أى مكان ٠ سفر نامة : ص ١٠

(١١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم : ص ١٤٥ ـ المقدسى ٠
مدينة (جانى) المعروفة بمعدن الحديد حيث يستخرج منها ويجلب الى سائر البلاد(١٢) ٠

(١٢) معجم البلدان : جـ ٢ ص ١٨٨ ـ مراصد الاطلاع : جـ ١ ص ٢٨٢ ـ ابن عبد الحق ٠

(١٣) معجم البلدان : جـ ١ ص ٦٣١

(١٤) الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ـ قسم الجزيرة ـ مخطوطة الورقة ٦٨ ب وهو ما نطلق عليه فى الوقت الحاضر اسم « الحيطان الكوتكريتية المسلحة » ابن شداد ٠

(١٥) نفس المرجع السابق ورقم ٦٩ أ ـ ٦٩ ب ٠

(١٦) تحفة النظار : ص ٢٣٥ ـ ابن بطوطة ٠

الحديد فانه يجذب الابر بأكثر من جذب المغناطيس - وتبقى فيه هذه القوة ماءة سنة ، وأكد ياقوت تلك المعلومة(١٧) ٠

أما الأحجار (من مثل الرخام) فأنواعها متعددة منها الأسود والأبيض والأزرق ، وكانت تستعمل فى تشييد الجسور(١٨) والدور(١٩) والأسوار(٢٠) والكنائس(٢١) وقد جاء فى مراصد الاطلاع بأن منطقة (البلاليق) التى تقع بين تكريت والموصل كانت مقالع للرخام(٢٢) وقد وصفت هذه الأحجار بأنها صلبة مانعة ، لا يعمل فيها الحديد ولا تضرها النار(٢٣) ، وقيل أنها نقشت وفرشت على الأرض فى الكنائس(٢٤) وصنعت منها المياض فى المساجد كما ذكر أن سور ميافارقين قد صنع من الحجر الأبيض الذى يزن منه خمسمائة منه كما صنعت الأبراج من هذا الصخر ونحتت فيه(٢٥) ٠

أما آمد فانها محاطة بسور من الحجار الأسود كل حجر يزن ما بين مائة وألف طن وأكثرها ملتصق ببعضه من قير طين أو جص(٢٦) ٠

وانشتهر جبل ماردين القريب من نصيبين بالرمل الصالح لصناعة الزجاج(٢٧) ووصفه ابن حوقل بأنه جوهر الزجاج الجيد ، وقال بأنه كان يحمل منه الى سائر بلدان الجزيرة الفراتية وبلد الروم ، فيفضل على ما سواه بجوهريه فيه(٢٨) وكانت مدينة (القادسية) الواقعة بالقرب من سامراء يعمل فيها الزجاج خلال القرن السادس الهجرى(٢٩) ٠

---

(١٧) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم : ص ١٣٤ - المقدسى - معجم البلدان : جـ ١ ص ٦٦ - ياقوت ٠
(١٨) رحلة ابن جبير : ص ٢١٥
(١٩) معجم البلدان : جـ ٤ ص ٦٨٢ ، مرصد الاطلاع : جـ ١ ص ٤٣٩
(٢٠) الأعلاق الخطيرة - الورقة ٦٦ أ - ٦٦ ب ٠
(٢١) ناصر خسرو - سفر نامة ص ١٠
(٢٢) مراصد الاطلاع : جـ ١ ص ١٦٩
(٢٣) الأعلاق الخطيرة - الورقة ٦٦ أ - ٦٦ ب - أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٨٧
(٢٤) ناصر خسرو نامة ص ١٠
(٢٥) ناصر خسرو نامة : ص ٨
(٢٦) المرجع السابق ٠
(٢٧) مسالك الممالك : ص ٧٥ للاصطخرى ٠ تقويم البلدان : ص ٢٧٩ أبو الفدا ٠
(٢٨) صورة الأرض : ص ٧٥ - ابن حوقل ٠
(٢٩) المشترك وضعا والمفترق صقعا : ص ٣٣٧ - ياقوت ٠

ومن المحتمل جـدا أن يكون ما أشار اليه ياقوت حول صناعة الخزف فى بلاد فارس (المـأخوذة عن بلاد الصين) كانت قائمة فى الجزيرة الفراتية فى تلك الفترة حيث كان يؤخـذ الحصى والكلس القلعى رمل الزجاج ثم يعجن على اليوابن وينفخ ويعمل بالمـاسك ، كما ينفخ الزجاج مثل الجامات وغيرها من الأوانى(٣٠) ٠

ويبـدو أن رمل الزجاج قـد استعمل لأغراض مختلفة فى صناعة واجهات المساجد والمراقـد وشبابيك البيت وداخل الأسواق والقيساريات ، كما ورد استعمال الزجاج مع الرخام(٣١) لأغراض مماثلة ٠ ويصف القزوينى حمامات مدينة سنجار بأنها مكونة من جامات ملونة مثل الحمراء والصفراء وهى مرتبة كالنقوش فالجالس فى الحمام كأنه فى بيت مدبج(٣٢) ٠

وفى بعض مـدن الجـزيرة الفراتيـة ، يقتـلع المـلح من البـرارى والسـبائخ المنتشرة فى وسـطها ثم ينقى وتجهـز به المـدن(٣٣) ٠ ويذكـر ياقوت(٣٤) ما يشير الى وجود ملاحة فى جزء من وادى الثرثار حيث تقـل الأمطار فى الصيف وتتبخر المـاء من بعض اقسامه أما ملاحة حلب الواقعـة بالقرب من قرية الجبول فقـد كان يؤخـذ منها الكثير من المـلح الذى يرسل الى بلاد الجزيرة والشام وقـد كان يقـدر عائدها فى كل سنة بمائة وعشرين ألف درهم(٣٥) ٠

---

(٣٠) معجم البلدان : جـ ٣ ص ٤١٩ ـ ياقوت ٠

(٣١) صورة الأرض : ص ٢٠٥ ـ ابن حوقل ٠

(٣٢) آثار البلاد وأخبار العباد : ص ٣٩٣ ـ القزوينى ٠

(٣٣) صورة الأرض : ٢٠٥ ـ ابن حوقل ٠

(٣٤) معجم البلدان : جـ ١ ص ٩٢١ ـ ياقوت ٠

(٣٥) مراصد الاطلاع : جـ ١ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ، معجم البلدان : جـ ٢ ص ٢٩ ـ ياقوت ٠

صناعات الخمور والسكر

انتشرت صناعة الخمور فى أغلب مدن الجزيرة الفراتية ، وقد زاول صناعتها النصارى وبرعوا فى صناعتها فى أديرتهم وكنائسهم منذ القرن الرابع الهجرى حيث ذكر الشابشتى فى كتابه الديارات معلومات غير قليلة عن صناعة الخمور التى كان يهتم بها الرهبان ورجال الكنيسة وغيرهم من المسيحيين(٣٦) الذين استمروا فى صناعتها وتعاطيها خلال القرن السادس الهجرى ٠

فقد أشار العمرى فى كتابه مسالك الأبصار الى الشراب المفضل فى اللون والرائحة والعتق فى أكثر أديرة النصارى ففى هذه الفترة وخاصة فى دير الزعفران بالقرب من علثايا(٣٧) وخمر دير عمر أحويشا باسعرد المطل على مدينة أرزن الذى يحمل منه الكثير الى البلدان لجودته(٣٨) ٠

كما ينسب الى دير (أكمن) الخمر الموصوف فى نهاية الجودة ، وقد قيل عنه بأنه « لا يورث الخمار »(٣٩) أى (لا يسكر بأفراد) والى « قطربل » وهى قرية بين بغداد وعكبرا من أرض الجزيرة بنسب الخمر الجيد ، وهى ما زالت متنزها للبطالين وحانة للخمارين على حد قول ياقوت(٤٠) ٠

وبنفس الطريق تقع قرية (القفص) التى يقال عنها بأن فيها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة(٤١) ٠

---

(٣٦) الديارات : ص ١١٧ ـ الشابشتى ٠

(٣٧) مسالك الأبصار : ج ١ ص ٢٥٥ ـ العمرى ٠

(٣٨) مراصد الاطلاع : ج ١ ص ٤٢٣ ، مسالك الأبصار : ج ١ ص ٣١٠

(٣٩) معجم البلدان : ج ٢ ص ٦٤٤

(٤٠) معجم البلدان : ج ٤ ص ١٣٣

(٤١) معجم البدان : ج ٤ ص ١٠٥ : وأشير الى توفير الزيت فى مدينة سروج الواقعة الى شمال حران حيث يصنع (الرب) الذى يدخل فى صناعة (الناطف) وهو نوع من الشراب الذى كان يتناوله الرهبان فى أديرتهم وكنائسهم أثناء الطقوس الدينية : ابن حوقل : صورة الأرض : ص ٢٠٧ ـ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ٣١ أ ٠

وجاء فى كتاب رسائل ضياء الدين ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) وصفا شيقا للخمرة ومجالسها فى الموصل ، وبعض مدن الجزيرة الفراتية ، وأشار الى تناولها فى محضها أى خالصة أو فى (مذاقها) أحيانا أى بعد مزجها بالماء(٤٢) .

وهناك نوع من الشراب يعمل من الشعير ويعلوه الزبد (الفقاع) وقد أشار أسامة بن منقذ الى هذا الشراب الذى كان يصنع فى مدينة حصن كيفا سنة ٥٦٨هـ - ١٢٧٢م ويجلب الى المدن الأخرى ومنها الموصل(٤٣) .

لدينا ما يشير الى أن هناك صناعة تقابل صناعة تعليب وتجفيف الفواكه والخضر واللحوم والأسماك فى الوقت الحاضر فى بعض المدن خلال القرن السادس الهجرى ، وقد أشار الى وجودها قبل هذه الفترة المقدسى البشارى فى مدينتى نصبين والحسنية ، ففيها الفواكه المقددة (أى المجزوءة والمفرومة والمقطعة) و فىمدينة الموصل الطريخ الفائق (أى السمك الذى يملح ويكبس ، كما أن فيها وفى معلبتا اللحم المجفف النيىء(٤٤) .

أما صناعة العطور التى كانت تقوم على الورد وتقطيره واستخلاص عطره(٤٥) فيبدو أن مدينة نصين كانت قد اختصت بها حيث كان يجلب منها ماء الورد الى الآفاق(٤٦) .

واستمرت نصيبين فى صنع ماء الورد الذى لا نظير له حتى أواخر القرن السابع الهجرى(٤٦) .

وأشار الصفدى الى اللاذن فى الموصل الذى يبخر فيقطع الرائحة الرديئة(٤٨) وكانت العطور تعرض فى حوانيت لبيعها فى سوق العطور فى مدينة الموصل(٤٩) .

---

(٤٢) رسائل ابن الأثير (تحقيق أنيس المقدسى - بيروت ١٩٥٩) ص ١٧٢ - ١٧٣ - ضياء الدين ابـ نالأثير .
(٤٣) كتاب الاعتبار : ص ١٧٧ - أسامة ابن المنقذ .
(٤٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم - ١٤٥ : المقدسى .
(٤٥) قوات الوفيات فى معرفة : ١٧١ - ابن شاكر الكتبى .
(٤٦) مسالك الممالك : ص ٧٦ - الاصطخرى .
(٤٧) تحفة النظار : ص ٢٣٦ - ابن بطوطة .
(٤٨) نكت الهيمان فى نكت العميان : (ط أحمد زكى بك ١٩١١م - ١٥٦ - الصفدى) .
(٤٩) ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢٦٢ - سبط بن الجوزى ، جاء عند الخطيب العمرى أن فى الموصل خلال القرن السابع الهجرى احدى عشر دكانا لبيع السمك . منهل الأولياء - جـ ١ ص ٦٠

وصنعت العطور من أنواع الورد ومنها (الخلوق) وهو ضرب من الطيب يعمل من ورد الزعفران وتغلب عليه الحمرة والصفرة(٥٠) • وقد شاع استعماله فى عصر ابن سعيد المغربى حيث ذكر كذلك الورد الأبيض الذى كان يعم ماء ورده بلاد الدنيا ويفضل على سائر أنواعه(٥١) كما يعمل من ورد اللينوفر الذى كان يكثر فى مدينة نصيبن وكذلك من ورد النرجس(٥٢) ويبدو أن مدينة نصيبن كانت قد اختصت بتقطير الورود واستخلاص عطرها وكان يجلب منها ماء الورد وعطره الى الآفاق •

ومن انواع العطور التى يشير الى صناعتها ياقوت فى مدينة داريا بالقرب نصيبن « المحلب » الذى كانت تتطيب به الاعراب(٥٣) •

اما السكر فقد عرفت صناعته فى مدينة الموصل وخاصة صناعة السكر النادر الأسمر الذى أشار اليه ابن الأثير ويبدو أن صناعته كانت محدودة وكان السكر الأبلوج المصرى يغطى حاجات الناس فى تلك الفترة لذلك لم تقدم المراجع معلومات تفصيلية وكافية عن صناعة السكر فى مدن الجزيرة الفراتية • ولعل سكر الأهواز وهو أردأ أنواع السكر هناك كان يجلب الى تلك البلاد(٥٤) •

كما اشار القلقشندى الى وجود عمل قصب السكر(٥٥) ويبدو أن صناعته قد شاعت فى بلاد الشام والجزيرة أيام الأيوبيين •

---

(٥٠) الديارات : ص ١٩٦ : الشابشتى •
(٥١) بسط الأرض فى الطول والعرض : ص ٨٩-٩٠ - ابن سعيد المغربى
(٥٢) فوات الوفيات : جـ ٢ ص ١٧٦ - ابن شاكر الكتبى •
(٥٣) معجم البلدان : جـ ٢ ص ٥١٦ - ياقوت •
(٥٤) التبصر بالتجارة : ص ٣٢ - الجاحظ •
(٥٥) صبح الأعشى : جـ ٣ ص ٤٤٣ - القلقشندى •

وبعـد ..

أرجو أن أكون وفقت بهـذه البحاثة الى القاء بعض الضوء على نموذج من نماذج الحضارة فى مدن الجزيرة الفراتية عبر القرن السادس الهجـرى ، وان كنت قـد تخاذلت فليس عن تقصير ، وأرجو اللـه أن يوفقنى ما وسعتنى المقـدرة لبلوغ الغاية العلمية المنشودة .

والله اسأل التوفيق ؟

د. سوسن محمـد نصر



المصـــادر والمراجع

١ - ابن الأثير :

عز الدين محمـد بن محمـد بن عبـد الكريم (ت ٦٣٠هـ - ١٢٣٢م) ·
الكامل فى التاريخ - مطبعة الاستقامة بالقاهرة ·

٢ - ابن بطوطة :

محمـد بن عبـد اللـه بن ابراهيم اللواتى الطنجى - (ت ٧٧٩هـ)
- تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - دار صادر - بيروت ١٩٦٠

٣ - ابن جبيـر :

محمـد بن أحمـد النانى الأندلسى - (ت ٦١٤هـ - ١٢١٧م) - رحلة ابن جبير (دار صادر - بيروت - ١٩٥٩) ·

٤ - ابن حوقل :

أبو القاسم النصيبى - (ت ٣٦٧هـ - ٩٧٧م) - صورة الأرض - الطبعة الثانية - مطبعة بريل - ليدن - ١٩٣٨م ·

٥ - ابن شاكر الاكتبى :

محمـد بن أحمـد - (ت ٧٦٤هـ - ١٣٦٢م) - فوات الوفيات : ج ١ و ج ٢ - مطبعة السعادة - مصر - ١٩٥١م ·

٦ - ابن شـداد :

عز الدين محمـد بن على بن ابراهيم - (ت ٦٨٤هـ - ١٢٨٥م) - الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة - (قسم الجزيرة) - مخطوطة فى مكتبة جامعة اكسفورد رقم

٧ - ابن عبـد الحق :

عبـد المؤمن - (ت ٧٣٩هـ - ١٢٣٨م) - مراصـد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - ٣ أجزاء - تحقيق على البجاوى - الطبعة الأولى - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٥٤م ·

٨ - ابن كثيـر :

اسماعيل بن عمر الدمشقي - (ت ٧٧٤هـ - ١٣٧٢م) - البداية والنهاية فى التاريخ - (١٤ جزء - مطبعة السعادة - القاهرة -١٩٣٢م ٠

٩ - ابن منظور :

جمال الدين محمـد بن مكرم - (ت ٧١١هـ - ١٣١١م) - لسـان العرب - ١٥ جزء - دار صادر - بيروت ٠

١٠ - ابن المنقـذ :

أسامة الكنانى الشيرزى - (ت ٥٨٤هـ - ١١٨٨م) - كتاب الاعتبار - تحقيق فيليب متى - مطبعة جامعة برنستون - الولايات المتحدة - ١٩٣٠م ٠

١١ - أبو الفـداء :

عماد الدين اسماعيل صاحب حماة - (ت ٧٣٢هـ - ١٣٣١م) - تقويم البلدان - طبعة باريس - ١٨٤٠م ٠

١٢ - الاصطخرى :

أبو اسحق ابراهيم بن محمـد الفارسى - (ت ٣٤١هـ - ١٩٥٢م) - مسالك الممالك - دي غويه بريل - ليـدن - ١٩٢٧م ٠

١٣ - الجاحظ :

أبو عمرو بن بحر البصرى - (ت ٢٥٥هـ - ٨٦٨م) - كتاب التبصير بالتجارة - نشر حسن حسنى عبـد الوهاب التونسى - الطبعة الثانية - ١٩٣٥م ٠

١٤ - الخطيب السهرى :

محمـد أمين بن خير اللـه الخطيب (توفى فى القرن الثالث عشر الهجرى) - منهل الأولياء وشرب الأصفياء من سادات الموصل الحـدباء - ج ١

١٥ - سبط ابن الجوزى :

شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى بن عبـد اللـه البغدادى - (ت ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م) - مرآة الزمان - مطبعة مجلى - دائرة المعارف العثمانية - حيدر أباد الدكن - الهنـد - ١٣٧٠هـ ٠

١٦ ـ الشابشتى :

ابو محسن على بن محمــد ـ (ت ٣٨٨هـ ـ ٩٩٨م) ـ الديارات ـ تحقيق كوكيس عواد ـ مطبعة المعارف ـ بغــداد ـ ١٩٥١م ٠

١٧ ـ الصفدى :

صلاح الدين خليل بن ايوب بن ايبك ـ (ت ٧٦٤هـ ـ ١٢٦٥م) ـ نكت الهيمان فى نكت العميان ـ (نشرة أحمــد زكى بك ـ ١٩١١م) ٠

١٨ ـ ضياء الدين ابن الأثير :

محمــد بن عبــد الكريم الجــذرى ـ (ت ٦٣٧هـ ـ ١٢٣٩ م) ـ رسائل ابن الاثير ـ تحقيق أنيس المقــدسى ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٥٩م ٠

١٩ ـ العمــرى :

شهاب الدين بن فضل اللــه ـ (٧٤٩هـ ـ ١٣٤٨م) ـ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ـ ج ١ ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٢٤م ٠

٢٠ ـ القرزينى :

زكريا بن محمــد بن محمود ـ (ت ٨٦٢هـ ـ ١٢٨٣م) ـ آثار البلاد وأخبار العباد ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٠م ٠

٢١ ـ القلقشــندى :

احمــد بن على بن ابى اليمن القاهرى ـ (٧٢١هـ ـ ١٤١٨م) ـ صبح الأعشى فى صناعة الانشا ـ ١٤ جزء ـ المطبعة الأميرية ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٩١٣ ـ ١٩٢٢م ٠

٢٢ ـ المقــدسى البشــارى :

محمــد بن احمــد ـ (ت ٣٧٥هـ ـ ٩٨٥م) ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ـ تحقيق دى غويه ـ مطبعة بريل ـ ليــدن ـ ١٩٠٦م ٠

٢٣ - ناصر خسرو :

علوى (القرن الخامس الهجرى) - سفر نامة - بالفارسية - ترجمة الدكتور يحيى الخشاب - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٤٥م ·

٢٤ - ياقوت الحموى :

شهاب الدين أبو عبد الله الرومى البغدادى - (ت ٦٢٦هـ - ١٢٢٨م - معجم البلدان - ليبك ١٨٦٦ - منشورات مكتبة الأسدى - طهران

الحركة الفلسفية
في ظل الخلافة الفاطمية

تـــأليف

الدكتورة سوسن محمد نصر
كلية التربية - بنهـــا
جامعة الزقازيق

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م



تمهيـد :

لا ريب أن البيئة عنصر فعال فى حياة الباحث ، وما يحيط به من ظروف هى البوتقة التى تنصهر فيها ثمرة جهـده وبحاثته ، ويخرج منها نسيجا جـديدا ذا طابع مؤثر قـدر عمق دراسته وأبحاثه · ومصر منهل ينهل منه كل راغب علم ، فلا عجب أن أتجه بهـذه البحاثة لألقى شعاعا من نور على صفحة مشرقة فى عصر من العصور الخالية ، وعلى جانب من جوانب الحضارة المصرية لأبرز مشهدا فلسفيا حضاريا ازدهر فى عصر الخلافة الفاطمية ·

وعنـدما بدأ الاسماعيليون من أجل خلافة علوية فاطمية ارادوا بهـا طابعا خاصا بها فى قلب مصر الاسلامية مهـد الحضارة والاصالة والعـراقة رغم ما كان للظروف العسكرية والسياسية من أثار فى الدولة العباسية والتى حتمت اقامة دولة فاطمية فى بلاد المغرب ·

ودار الزمان دورته لتتبـدل الجهود الفاطميـة من نقل الخـلافة الى مصر فى عهـد الخليفة الفاطمى الأول عبـد اللـه المهـدى ، حتى نجح الخليفة الرابع المعز لدين اللـه الفاطمى فى فتح مصر واتخـذ منها مقرا ومركزا للخلافة الفاطمية وبذلت الجهود لتوطيد هـذه الخلافة فى مصر وبذر بذور الحضـارة الفاطمية فى أرضها الخصبة فترعرت وبلغت شأوا من البهاء والنماء حتى جنى المسلمون ثمارها التى أينعت قطوفها وكـذلك العالم أجمع ، ولقـد اتت هـذه الجهود ثمارا لهـذه الحضارة الناهضة فها هوذا الصقلى يضع أسس مدينة عظمى ولدت عملاقة شاهرة لواء الفكرة والحضارة منشئا جامعة أزهـرية من أوليات جامعات العالم وأبرزها وأرساها قاعدة ومنـذ عهـد الخـلافة الفاطمية ابتـداء حتى آخر خلفائهم العاضد باللـه وهم ينشطرون المصريين أحوالهم فى الرخاء والشـدة ، وبذلك أصبحت مصر قاعـدة للفاطميين ومنارة فى سماء المعمورة تنافس بغـداد العباسية وقرطبة الأموية · فوجود مصر عنـد التقاء قارات ثلاثة وكـذا وجودها عنـد التقاء أعظم بحرين فى العصور الوسطى جعل من الحضارة الفاطمية كيانا سامقا عالميا فضلا عن التبعيـة التى أوجبت على المسلمين جميعا أن يتجهوا بالولاء السياسى والدينى باعتبارها مركزا للخلافة الفاطمية الجـديدة ولقـد أصبغ بعض الخلفاء الفاطميين على البحر الأبيض المتوسط طابعا فاطميا فأصبح بحيرة فاطميـة ، فضـلا عن سيطرتهم الواضحة على بعض جزره بالاضافة الى ما أقاموه من علاقات وثيقة مع دول أوربا ، وكـذا امتـد ظل النفوذ الفاطمى الى بلاد الشام والحجـاز واليمن كما كان لهم علاقات خارجية امتـدت شرقا وغربا وكانت تتـراوح بين الصـداقة والعـداء مما كان له أثر فى عالمية الفكر فى العصر الفاطمى اذ لم يعـد فكرا علميا اقليميا ·

واهتم الفاطميون بالنشاط العلمى الثقافى منه والتعليمى فكان كثير منهم على جانب كبير من العلم والثقافة أدى الى اهتمامهم بالمؤسسات التعليمية وجعل قصورهم مراكز ثقافية ، وضمت هذه القصور مكتبات ضخمة بذلوا فيها المال والجهد وجمعوا فيها كتبا فى علوم شتى من أرجاء البسيطة وأصبحت القاهرة كعبة العلم ومنارة العلماء والأدباء والفقهاء فضلا عن أن هذا العصر عايش الجهاد الاسلامى لمواجهة الحملات الصليبية مما أدى الى التقاء الثقافة الشرقية بالثقافة الغربية فجعل منها فكرا فاطميا متميزا له سماته وخصائصه واتجهاته ونتائجه • وعلى الرغم من أن هذه المرحلة الفاطمية شهدت صراعا فكريا بين أهل السنة والشيعة فان هذا الخلاف كان ظاهرة صحية فى المجالات الفكرية أثبتت حيوية الأمة الاسلامية ونتج عن الجدال والحوار والنقاش ثراء فكريا ونشاطا علميا • واذا ولينا وجهنا شطر الدراسات الاجتماعية وتخيرنا احدى العلوم العقلية التى كانت فى نمو مضطرد ألا وهى الدراسات الفلسفية سنجد أنه قد ظهر عدد غفير من أعلامها ساعد على بروزهم وظهورهم ان الفاطميين أفسحوا صدورهم لهذه الدراسات الفلسفية حيث كانت العقائد الفاطمية وقتئذ ميدانا فسيحا للعقل ومجالا هائلا أدى الى ازدهار الحركة الفلسفية التى كانت فى أغلبها تتبع عقائد الفاطميين والفلسفة فى نظر الاسلاميين واحدة من مجموعة علوم الأوائل كما أطلقوا عليها ذلك « أو علوم القدماء » أو « العلوم القديمة » وهو اسم أطلقه هؤلاء الكتاب على تلك العلوم التى نفذت الى البيئة العلمية الاسلامية بتأثير هذه المؤلفات المأخوذة عن الكتب اليونانية تأثيرا مباشرا أو غير مباشر وهى التى أطلقوا عليها كتب الأوائل فى مقابلة علوم العرب وفى مقابلة العلوم الشرعية • وفى مقدمة هذه العلوم – الرياضيات – الطبيعيات – الالهيات • مما احتوته دائرة المعارف اليونانية أى الفروع المختلفة من رياضة وفلسفة وطب وطبيعة وفلك وموسيقى • ونظرا الى أن الاشتغال بهذه العلوم قد ارتبطت التقاليد الأفلاطونية المحدثة قد أدخل فى علوم الأوائل وعلوم الفلسفة ممارسة علوم السحر والطلمسات والنيرنجيات الى جانب علم التنجيم(١) •

---

(١) أنظر كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية – مقالة ص ١٢٣

دراسة نقـدية تحليلية

والغرض من نقاط هـذه البحاثة أننى سأحاول قـدر طاقتى آلقاء بعض الضوء على هـذا الفرع من التراث الفاطمى ٠

فمؤيد الدين الشيرازى قـد صور لنا عقائد الفاطميين تصويرا بينا فى ديوانه كشف لنا عن تعمقه فى فلسفة الدعوة الاسلامية مشيرا الى الولاية والتوحيـد كما يتضـح ذلك فى قصـائده التى هى دعوة الى وجوب طاعة الأئمـة(٢) ٠

كما تعرض المؤيد فى ديوانه أيضا لمبـدأ التأويل والمجاز القـرآنى والرأى والقياس ونظرية المثل والمثول ، فالاسماعيبية يذهبون الى القول بأن النبى صلوات اللـه عليه علم تأويل ما أتى به وعنـد أخـذ الراسخون فى العلم ما أخـذوا كما وأن من قام مقامه فى كل عصر كان يعلم هـذا التأويل علما يقيذ وأن القـرآن الكريم لا ينضب معينه ولا تنتهى كنوز معانيه ، وأن له من عمق المعانى غير المعانى المتداولة على السنة العامة والتى تعتبر سير المجاز القرآنى فى عمق معانيه لا فى لفظه كما يذهب الاسماعيليون الى هـذا القول(٣) ٠ ويعتقـد الاسماعيليون أن الامامة هى قيادة للعالم وتوصيل حقيقة المعرفة اليه مما يجعل وجود مرشـد فى كل زمن وعصر ليمحو جهل النـاس فى هـذا العصر أمرا حتميا للامامة ـ ومن هـذا المنطلق فانهم يعتبرون عليا وذريته هم الأئمة الذين اختصوا بتأويل القـرآن دون سواهم من عامة النـاس٠ وطعن الفاطميون بالقياس فى التعبير والفقه وفى فتاوى الصحابة واعتبـروا أن الفقهاء الأوائل من أهل المذاهب قـد حرفوا القـرآن الكريم وانهم لم يفهموا معناه ولم يتعـدى فهمهم معانى اللفظ(٤) ٠

وقطع الاسماعيليون بأن الدين وعلومه وقف على الأئمة من اهل البيت وأن هذه العلوم هى علوم الباطن ومن هنا جاءت تسمية الباطنية لأن قوام عقيدتهم ايمانا بهـذا العلم ٠

ولقـد أطلقوا نظرية المثل ، والممثول هو استخلاص الباطن من الظاهر فعنـدهم المثل بالظاهر والممثول بالباطن ولكل مثل ممثول كما أن لكل ظاهر

---

(٢) أنظر ديوان المؤيد ص ٦١
(٣) أنظر ديوان المؤيد : ص ١٠١
(٤) نفس المصـدر : ص ١٠٤

باطن والحق تبارك وتعالى يضرب الأمثال للناس وبواطن هـذه الأمثـال أو ممثلوها فان علمه عنـد الأئمة لأنهم وحـدهم أصحاب علم الباطن أى تفسير الأمور العقلية غير الملموسة بما يقابلها من الأمور الجسمية المحسوسة وهـذا الاسم من أقوال الفاطميين اذ جعل اللـه للناس مثلا دالا على ممثوله فعرفوا المثول بمثله ويتضح ذلك فى قوله عز وجل « ولقـد ضربنا للنـاس فى هـذا القـرآن من كل مثل لعلهم يتـذكرون(٥) ٠

وتصور هـذه الآية ما أخفاه اللـه سبحانه من المثول وستره وجعل مثله طريقا الى معرفته امتحانا لعباده ٠

ولقـد كان للمؤيد وجهة نظر على ما أخـذت به الفرق المختلفة فى تفسير رؤية الرحمن ورد على الفرق التى أثبتت رؤية الرحمن وأنكرتها وأثبتت أن الرؤية تنقسم قسمين اثنين :

أولهما محسوب ـ وثانيهما معقول ، وهى رؤية العقل ٠ فالبصر القاصر لا يتعـدى المبصرات الحسية والعقل المحـدود لا يدرك الا المـدركات العقلية ٠ ومن هنا فان الرؤية اما أن تكون رؤية حسية أو رؤية عقلية وبذلك يكون المؤيد قـد دحض المثبتين لرؤية اللـه تعالى سواء بالابصار أو بالعقول ٠ مخالفا بذلك أهل السنة الذين أثبتوا صفات اللـه مخالفين للمعتزلة الذين رفضوا الصفات ٠ ولقـد اتفقت وجهة نظر المؤيد مع التأويل الاسماعيلى فيما ورد فى آيات كتاب اللـه من ذكر اليـد والقـدم والعين وغير ذلك من الصفات الجسمية ٠ فهو يرى أن معنى اليـد هى النعمة وهى القوة كما أن رأى المؤيد فى الأحرف التى وردت بأوائل بعض السور « ى ـ س ، ألف ، لام ، ميم » يطابق رأى الاسماعيلية الذين يقولون بالتأويل وهو يرى أن هـذه الحروف سر خفى لا يعلمها الا خزنة علم اللـه(٦) ولقـد تعرض المؤيد لقصص الأنبياء ونهج فيها نهج الفاطميين الذين خالفوا جمهرة المفسرين فيما ذهبوا اليـه عن الأنبياء بقولهم أنهم معصومون رغم ما يتبينه القارىء للقرآن الكريم لبعض قصصهم التى تشير الى أنهم غير معصومين ولقـد قال الفاطميين :

ان لهذه الآيات تفسيرا ظاهريا وظاهرها ما قال به جمهور المفسرين أما باطنها فانه يشير الى عصمة الأنبياء كما سمى الفاطميون الأنبياء بالنطقاء لأن النطق كما قالوا قسمان : أحدهما ما يتميز به الانسان عن البهائم وهو

---

(٥) سورة الزمر : ٣٩ ـ ٢٧

(٦) د٠ حسن ابراهيم حسن ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٩٨

النطق عما فى الدنيا والآخر النطق عما فى الدار الآخرة ، الذى يتميز به أهل التأويل الذين يتكلمون من وراء حجاب(٧) ٠

ومن هنا يمكننا أن نجمل القول عن الفلسفة الفاطمية كما أرادها فيلسوف دعوتهم مؤيد الدين الشيرازى وكما صورها على أسس هى :

١ ـ توحيد اللـه وتنزيهه عن الشريك والقرين ٠

٢ ـ الايمان بالأنبياء والرسل وأنهم معصومون من كل خطأ وأن محمدا صلوات اللـه وسلامه عليه خاتم النبيين ٠

٣ ـ الاعتقاد بوصاية على بن أبى طالب وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعا ٠

٤ ـ الايمان بما جاء به القرآن الكريم والعمل بتعاليمه ظاهره وباطنه ٠

٥ ـ اعتبار الرأى والقياس باطلين فى كل أمور الدين والأخذ عن الأئمة ٠

٦ ـ الجمع بين الظاهر والباطن أى أنه لا يقبل ظاهر دون باطن ولا باطن دون ظاهر(٨) ٠

وهكذا اتخذت الدولة الفاطمية الدعوة الشيعية قواما لها كما يتبين القارىء مما سلف فضلا على أن الخلفاء الفاطميين لبثوا ثوب الامامة الدينية فى ظروف مجهولة(٩) واتخذوا الفلسفة سبيلا الى نشر عقيدة دينية وضح غرابتها يوما فى كافة الأوساط السنية فى مصر فى وقت كان المذهب السنى يدحض هذه الفلسفة ، لما به من وضوح لا يحتاج الى عون الفلسفة ولأن مصر بطبيعتها تستجيب للعاطفة دون العقل فانها قد اندفعت ومالت ميلا شديدا تتحمس للدين تحمسا قويا وأن بغضها للعلوم العقلية كان سببا ظاهرا فى أن تحرم من الانتفاع بفلسفة الاسكندرية قبل مجىء الاسلام كما حرمها ذلك أيضا من الانتفاع بفلسفة الفاطميين ولقد شن المصريون حربا شعواء على فلسفة الاسكندرية واعتبروها فلسفة وثنية ولقد آزر شعب مصر هذه الحركة المضادة حتى ضعفت مدرسة الاسكندرية وتعرضت للضياع والتلف قبل ظهور الاسلام ٠

---

(٧) مقدمة ديوان المؤيد : ص ١٣٢ ، ص ١٥٢

(٨) مقدمة ديوان المؤيد : ص ١٨

(٩) محمد عبد اللـه عنان : الحاكم بأمر اللـه : ص ٢٥٢

وقــد أجهز الاسلام على البقية الباقية منها لأن موقف المصريين من الفلسفة والدين لم يتغير بين رفض واستجابة(١٠) ٠

ان فلسفة الفاطميين بدء أمرها اضطرت المصريين وغيرهم الى التفكير وبدأ الدعاة والقضاة في قيادة هــذه الحركة وقطعوا شوطا لا بأس به وكان من حق هــذه الفلسفة الفاطمية أن تثبت قــدمها فى مصر وأن تؤثر فيها تأثيرا قويا ما دامت بعيــدة عن الاسراف والغلو اللذين كانا صفتا فرق أخرى شيعية ، وأن يكون نتيجة لهــذا كله أن يظفر المصريون بعظمة المكان فى تاريخ الفكر والحركة الفكرية وقتئــذ لم تكن عظيمة فى مصر ولو أن الفاطميين عاشوا فيها أقوياء أكثر من هــذا كما لو أن المصريين آزروا خلافتها وتحمسوا للحركة تحمسا قويا أو لو أن صلاح الدين لم يأت الى مصر لازالة هــذه الخــلافة ولكن الدولة الفاطمية قضت أيامها بالديار المصرية والتى تزيد عن قرنين كاملين فرقت بين علم يصلح للعامة وعلم لا يصلح الا للخاصة وألبســت هــذه التفرقة نوبا من الدين وان كانت هــذه التفرقة لا غبار عليها من الناحية الديمقراطية البحتة فان المذهب السنى بنوع خاص قــد ناصر الديمقراطية العلمية مناصرة حببت فيه الشعب وأساء ظنه بالعلوم الفاطمية التى سميت « بعلوم آل البيت » وهــذه دلالة على أن مصر لا تستطيع صبرا المضى طويلا فى حركات فكرية عنيفة تكلف عقلها فيها مشقة وعناء وتمضى فيها مصر على نحو ما كانت تمضى المــدن القــديمة المعروفة(١١) ٠

والعصر الفاطمى فى مصر من أبهى العصور الاسلامية من الناحية العلمية التى بلغت شأوا هائلا من الازدهار والنمو وكثرة العلماء الذين كانوا بمصر أو وفــدوا اليها وتعــدد المؤلفات المختلفة من كل الفنون والعلوم ٠ كما أن أئمة الدعوة الفاطمية شجعوا العلماء وقربوهم اليهم وأوقفوا أرزاقا ثابتة لطلاب العلم والمشتغلين به وأتاحوا لهم فرصة التفرغ لمــا أهلوا أنفسهم له ولقــد عرفنا عن اهتمام الفاطميين بانشاء خزائن الكتب فى القصور كمــا هو فى دور العلم حتى يتسنى للطلاب والعلماء حسن الاطلاع وعظيم الاستفادة من تراث السابقين(١٢) ٠

وذلك كان مأوى وحماية للأئمة من الفاقة والعوز علاوة على انه كان حافزا لهم ودافعا على مواصلة البحث والتأليف والدراســة(١٣) ٠

---

(١٠) د٠ عبــد اللطيف حمزد ـ الحركة الفكرية فى مصر : ص ٣٦٨ ، ٣٦٩

(١١) الدكتور عبــد اللطيف ـ الحركة الفكرية : ص ٣٦٩

(١٢) القاضى النعمان ـ المجالى والمسايرات ـ ورقة ١٤٦

(١٣) الدكتور محمــد كامل حسين ـ فى أدب مصر الفاطمية : ص ١٦٦

فقاهرة المعز لدين اللـه يومئـذ كانت مطمعا لأنظار العلماء وغاية ومحط رجال العلم ، فانتزعت دعامة العالم الاسلامى وبسطت آرائها وتعاليمها على البلدان ، حتى أن بعض العلماء الذين كانوا ينقمن على الشيعة عامة والفاطميين خاصة يفـدون على مصر ويتأسون ببعض الآراء السائدة فيها وقتئـذ ٠

وخير تبيان لذلك الامام الغزالى الذى هاجم الفاطميين فى كتبه الفسطاسى والمنقـذ من الظلال والمستظهرى والرد على الباطنية وغيرها من الكتب ولكنه بعـد وفادته على مصر وفى أواخر أيامه ألف كتاب « مشكلة الأنوار » متأثرا ببعض العقائد الفاطمية ولا سيما نظريتهم فى تدريب العقول ، ولقـد ساند أئمة الفاطميين العلم والعلماء لأن مذهبهم يقوم على العلم والعلم قبل كل شىء وبالجـدل العلمى والمناظرات انتشرت الدعوة الفاطمية فى العالم الاسلامى واستطاع الفاطميون أن يكونوا دولتهم العقيدة وأساس عقيدتهم العلم والعمل، والعمل هو الظاهر والعلم هو الباطن وعلم الباطن يقوم على استخدام العقل ومطابقة المحسوس للمعقول ولا غرو أن رأينا تشجيع الفاطميين للعلم الذى هو فى حقيقته أرسى قواعد العقيـدة الفاطمية ولقـد كان للفلسفة اليونانيـة وقـديم المـذاهب الدينية أثر بين على أرباب هـذه الدعوة وعلمائها فكان اهتمام الفاطميين بمختلف ألوان هـذه الدراسات الفلسفية والمذهبية أحـد مأربين أما الرد عليها وتهجينها واما ادخال بعض عناصرها فى عقيـدتهم هـذا على جانب وعلى الجانب الآخر كان أهل السنة فى البلدان الأخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والالحاد(١٤) ٠

ويقول أحـد العلماء كيف وصف أهل السنة الفلسفة فيقول : « أن الفلسفة أس السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة(١٥) فالفكر اليونانى كان مؤثرا أساسيا فى الفكر الفاطمى الذى توسع فى دراسته ولقـد لاحظ المستشرق أوليرى ذلك فقـال أن مكانة الحركة الفاطمية الفكرية جلها مشبعة تشبعا كاملا بالفكر الهيلينى واحياء دراسة المواد اليونانية والالهام المباشر للطائفة الاسماعيلية(١٦) ٠

ولقد استدعى العزيز باللـه جبرائيل بن بختيشوع الى مصر فاعتذر(١٧) وأرسل الحاكم بأمر اللـه الى ابن الهيثم يستدعيه فأجاب :

---

(١٤) دكتور محمـد كامل حسين ـ فى أدب مصر الفاطمية : ص ٢٦٧ ، ٢٦٨

(١٥) دكتور عبـد اللطيف حمزة ـ الحركة الفكرية فى مصر : ص ٣٣٥

(١٦)

(١٧) القفطى : أخبار العلماء فى أخبار الحكماء : ص ١٠٥

وكتب الوزير الفلاحى الى وادى حلب فى طلب أبى العلاء المعرى(١٨) الى مصر وليبنى له دار علم يكون متقدما فيها وسمح له بخراج معرة النعمان له فى حياته وبعده ولكنه استعفاه من ذلك فأعفاه ·

وهذا يبين مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الفلسفية ولكل من اشتغل بفرع من فروعها ·

ويقول المقريزى أن من حملة المعرفة عند الفاطميين أن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة(١٩) ·

ولعل من أهم أسباب دعوة الفاطميين الى التفلسف أنهم كانوا يؤولون الديانات والشرائع تأويلا يؤدى الى تبديلها ومن هنا فان حاجتهم الى اللسان والجدل المؤيد بالفلسفة حتى يحسن ذلك(٢٠) - وبالنظرة المدققة للحياة العقلية فى العالم الاسلامى فى القرن الرابع وما بعده نرى تأثر العلماء تأثرا بينا بهذه الآراء التى روجها دعاة الفاطميين ونرى هؤلاء الفلاسفة النابغين فى نفس القرن الرابع الذين كانوا على مقربة وصلة من العقائد الفاطمية والعقائد الشيعية عامة فان حوقل الذى كان متشيعا لهم والذى قيل أنه من دعاتهم والفارابى فى حديثه عن التوحيد(٢١) وقد قيل أيضا أن ابن سينا اسماعيلى المذهب وأن آباه أحد دعاتهم فنشأ متأثرا بعقائدهم وجماعة اخوان الصفا الذين ازدهروا فى ظل البويهيين الذين كانوا يميلون الى التشيع ومنهم من اعتنق الدعوة الفاطمية وكان يراسل الخليفة الفاطمى وظهرت فى رسائل اخوان الصفا اسماعيليتهم وابن الهيثم كان متصلا بالحاكم بأمر اللـه الفاطمى وعاش فى كنفه وأبو العلاء المعرى حكيم المعمرة كان متأثرا تأثرا كاملا بهذه الآراء التى كانت تحيط به فقد امتد ظل الحكم الفاطمى الى بلاد الشام وانتشرت فيها آراء الفاطميين انتشارها فى كل البقاع التى خضعت أو لم تخضع وتذكر أحمد صيد الدين بن عبد اللـه الكرمانى فيلسوف الدعوة وحجتها فى العراق(٢٢) ونذكر المؤيد فى الدين فهو من شيوخ الدعوة وفلاسفتها ولقد نبغ فى عهد العزيز باللـه كثير من العلماء منهم أبو الحسن على بن رضوان الطيب الفيلسوف الذى وضع كثيرا من الكتب الفلسفية

---

(١٨) د· محمد كامل حسين - فى أدب مصر الفاطمية : ص ٦٨
(١٩) المقريزى : الخطط : جـ ١ ص ٣٩٥
(٢٠) شوقى ضيف - الفن ومذاهبه فى النثر العربى : ص ٣٥٥
(٢١) د· محمد كامل حسين - راحة العقل ·
(٢٢) د· محمد كامل حسين - راحة العقل ·

والمنطق وغيرها من علوم الحكمة(٢٣) كما أن لابن الهيثم جولات فى ميدان الفلسفة وضع فيها مؤلفات عديدة لم تتناولها أيدى الباحثين ولكن ابن أبى أصبعة فى كتابه طبقات الأطباء يورد بعض آراء ابن الهيثم الفلسفية بصورة عامة فهو يدخل شئون الدنيا والدين فى الفلسفة ويجعل علم الحق والعدل نتيجة لها وهو يخالف بذلك رأى من سبقوه من الفلاسفة الاسلاميين ومن أتوا بعده والذين يجعلون علم الحق وعلم العدل شركة بين الفلسفة والدين على نحو يختلف توصيله باختلاف الفلاسفة ويقول ابن الهيثم فى هذا الشأن « اننى لم أزل منذ عهد العباس مرويا فى اعتقادات هذا للناس المختلفة وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى فكنت متشككا فى جميعه موقنا بأن الحق واحد وأن الاختلاف فيه هو من جهة السلوك اليه فلما كملت لادراك الأمور العقلية انقطعت الى طلب معدن الحق فخضت لذلك دروب الآراء والاعتقادات وأنواع علوم الدين فلم أحظ من شىء منها بطائل ولا عرفت منها للحق منهجا ولا الى الرأى مسلكا جديدا فرأيت انى لا أصل الى الحق الا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية فلم أجد ذلك الا فيما قرره أرسطاليس فلما تبينت ذلك أفرغت وسعى فى طلب علوم الفلسفة وهى ثلاث علوم ـ الرياضة والطبيعة والالهيات ·

ولقد كان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة بغض النظر عن المال والجاه وكان جل اهتمامه العلم والموقوف على الحقيقة ولم يزل يلخص ويؤلف ويشرح فى حركة دائبة مستمرة على طول سنى عمره ويفند أسماء ما ألف معتكفا فى قبة على باب الجامع الأزهر منكبا على عمله وكان المبشر فاتك وهو أمير من أمراء مصر مولعا بالعلوم الفلسفية مقتنيا لكثير من كتب الفاطميين متجرا فيها وقد استفاد ابن الهيثم من عمله فى الهيئة والرياضة ، ونورد فيما هو آت بعض فلاسفة العصر الفاطمى ·

أولا ـ اخوان الصفا :

جماعة سرية تتألف من طبقات متفاوتة أخذوا كثيرا من مبادىء الفلسفة الطبيعية ، متأثرين بالفيثاغورية الحديثة ، لجأوا الى تأويل القرآن تأويلا مجازيا(٢٤) وهم من أشهر فلاسفة العصر الفاطمى ذات نزعة شيعية متطرفة حتى قيل أنهم اسماعيلية(٢٥) ويقول عنهم الأستاذ براون(٢٦) أن

---

(٢٣) على حسن الخربطلى : العزيز بالله الفاطمى : ص ١٢٠

(٢٤) ديبور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ـ ترجمة د· أبو زيد : ص ١٩٥

(٢٥) يرى البعض أن اخوان الصفا جماعة من علماء القرامطة الاسماعيلية وأنهم اتخذوا البصرة مركزا لنشاطهم العلمى ولهم فرع ببغداد ·

(٢٦) BROWN : Lit Hist of persia. Vol. I, P. 292.

اخوان الصفا موضع عطف بنى بويه الذين اشتهروا بأفكارهم الحرة - حلوا ردحا من الزمن محل العنصر التركى وأصبح لهم النفوذ الفعلى التام ببغداد حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى - (٣٣٤هـ - ٩٤٥م) ولقد استطاعت هذه الطائفة اتمام ما بدأه المعتزلة وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة الاسلامية والفلسفية اليونانية ، وتوحيد الثقافة فى صورة دائرة معارف وتعتبر وسائل اخوان الصفا أشبه بدائرة معارف ، أخذت من كل مذهب فلسفى بطرق وتدل فى الوقت نفسه على مؤلفيها نالوا حظا موفورا من الرقى العقلى وتتألف دائرة المعارف من احدى وخمسين رسالة تقوم على دعائم من العلم الطبيعى ولها من وراء هذا الغرض سياسية ٠

وتبدأ رسائل اخوان الصفا بالنظر فى الرياضيات ، وبالتلاعب بالأعداد والحروف ثم تنتقل الى المنطق والطبيعيات فترد كل شىء الى النفس وما لها من قوى وتنتهى أخيرا الى الاضطراب من معرفة اللـه على نمط صوفى(٢٧) ومجمل القول فى آرائهم أنها تذهب جماعة مضطهدة تبدو النزاعات السياسية من جميع أجزائه وترى من خلال بعض معاناة أصحاب هذه الرسائل من الآلام وما بذلوا كفاح وأنهم ظلموهم وأسلافهم فتحلوا بالأمل وتواصوا بالصبر وكانت هذه الفلسفة سلوى لهم وتطهيرا لأنفسهم واتخذوا فلسفة الاخلاص حتى الموت فى سبيل اصلاح الاخوان هى جهاد صحيح وهذه فلسفتهم ودينهم(٢٨) ورأوا الحج والطواف حول البيت مثل ضربة اللـه للناس للطواف حول هذه الأرض(٢٩) ٠ ورأوا أن مساعدة الأخ لأخيه فى الحياة بجل ما يتسع من جهد وقدرة وعلى كل ذى مال أن يجعل للفقير حظا من ماله وعلى ذى العلم أن يعلم أخاه الجاهل وأن كان العلم فى رسائل الاخوان حبس على خاصة المستبصرين من أفراد الطبقة العليا(٣٠) ومن هنا نرى أن هدف مؤلف الرسائل هو محاربة التوفيق بين الدين والعلم ولكنهم فشلوا فى ارضاء أهل الدين وأهل العلم - فقد عاب عليهم المتكلمون والفقهاء والسنيون طريقة التأويل ، كما عاب عليهم مبادئهم الفلسفية والمتأثرون بفلسفة أرسطو بوجه خاص ٠ وعلى الرغم من هذا كله استقرت الفلسفة اليونانية فى الشرق بفضل هذه الطائفة ، كما تأثرت بكتاباتهم طوائف الاسماعيلية كالدرزية والمشهورين بالحشيشية فى فارس والشام ٠ كما

---

(٢٧) د٠ حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٦٥
(٢٨) د٠ حسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٦٦
(٢٩) رسائل اخوان الصفا : ج ٢ ص ١١٩
(٣٠) ديبور - تاريخ الفلسفة الاسلامية - ترجمة ابو زيد : ص ٩٨ ،

أفاد آخرون فى تأليف موسوعاتهم على غرار رسائل اخوان الصفا(٣١) وقد ذكر الشهرزورى أسماء خمسة من مؤلفى هذه الرسائل ٠

أبو سليمان محمد بن نصر البستى - ويسمى أيضا القدسى (المقدس) - أبو الحسن على بن هارون الزنجارى - أبو أحمد النهرجورى (المهرجانى) الصوفى وزيد بن رفاعة ٠

ويظهر من أسماء الثلاثة الأوائل أنهم من أصل فارسى وكان من بينهم ابن سيناء الطبيب الفيلسوف المشهور الذى انتهت بموته سنة ٤٢٨هـ ٠

كما يقول : Dietrici (٣٢) حركة الفلسفة فى المشرق(٣٣)

ثانيا - أبو حاتم الرازى :

تمخضت الدعوة الفاطمية فى المشرق فى عهد عبد الله المهدى عن علماء دعاة أصحاب شأن كبير فى عالم الدعوة والأدب والفلسفة والتأليف ، وقد أخذوا على عاتقهم الثقافى الدفاع عن الدعوة بكل الوسائل بالقلم واللسان وعلى جذب الأمراء والعامة بهذا السلاح العلمى الخطير ومن هؤلاء الدعاة أبو حاتم الرازى الذى أطلق عليه الاسماعيلية :

أبا حاتم عبد الرحمن الرازى الذى كان داعيا اسماعيليا فى بلاد الرى ممثلا لنشاط الدعوة الفاطمية فى عهد امامة عبيد الله وخلافته متأثرا بمدارس الدعوة الذى أسسها عبد الله المهدى فى شمال أفريقيا واستغل رواج هذه الدعوة فى بلاد فارس منذ أيام عبد الله ميمون القداح فأعتق كثير من أهالى هذه البلاد المذهب الاسماعيلى(٣٤) ٠

وكان أبو حاتم من كبار دعاة الاسماعيلية اشتهر بدعوته الى المذهب الفاطمى وكان له دورا فعالا عظيما فى الشئون السياسية فى طبرستان والديلم وفى أصفهان والرى خاصة ولقد استجاب لدعوته كثير من كبار الدولة مثل

---

(٣١) ديبور - تاريخ الفلسفة الاسلامية : ص ٩٨ ، ٩٩

(٣٢) نشر رسائل اخوان الصفا وترجمها الى الألمانية برسنتى ١٨٥٨ - ١٨٨٦ ونشرت أيضا فى ثلاثة أجزاء بونبى ١٣٠٥هـ تصنيف أحمد بن عبد الله ٠

(٣٣) Brown lit — Hist of persia vol. I.P. 273.

(٣٤) نظام الملك - سفر نامة : جـ ٢ ص ٢٧٢

أسفار بن شوروية ومرادويج بن زيار(٣٥) ، وكان له الأثر الفعال فى اتصال مرادويج بعبيد اللـه ولا غرو فقد كان هؤلاء الدعاة من العلماء المشارقة سفراء عبـد اللـه المهـدى ذا أمراء المشرق وعامته(٣٦) ٠

ولقد رمى بعض السنيين أبا حاتم الرازى بتهم جمه فمنهم من أتهمة بالباطنية والزندقة وآخرون اتهموه بالدهرية(٣٧) الذين يقولون بأن لا نهاية للعالم وهى نفس الاتهامات يرمى السنيون جميع الدعاة الاسماعيلية تقريبا وعلى كل حال فان ذلك كله لا يقلل من شأن أبى حاتم فقـد كان علما من أعلام الفقه العلمية الاسلامية فى فارس فى القرن الرابع الهجرى ولقـد اسـتغل هـذه النهضة ذاتها فى الاشادة بامامة عبيـد اللـه المهـدى وتقـديمه ، ولقد كانت له نظريات جمة فى مبـدأ الستر والظهور حتى قالوا عنه أنه أول من وجه هـذين المبـدأين فى الاسلام توجيها جـديدا ٠

وعلى الرغم من أن اخوان الصفا كثيرا ما أوردوا فى رسائلهم لفظى الكشف والستار (الستر) لم يقصـدوا بهما ـ كما قال الدكتور حسين الهمدانى ما كان يقصد أبو حاتم ـ كما فعل الفلاسفة الاغريق بذكرهم معانى الكشف والستر بخلاف ما قصـده الاسماعيلية(٣٨) الذين ذهبوا الى الستر الاسماعيلى هو الدور الذى يعمل فيه الامام مختفيا فى دار هجرته والذى ينشط فيه دعاته فى نشر الدعوة وأما دور الظهور أو الكشف الامامى فهو الدور الذى تشرق فيه شمس الامامية على الكون فيظهر الامام المستور كما ظهرت الشمس من مغربها بظهور المهـدى ٠

---

(٣٥) قـدم الديلم وكانوا جميعا يميلون الى الشيعيين من قواده على بن بويه رأس البويهيين يقول السيوطى تاريخ الخلفاء ٣٥٩ وكان يريد قصد بغـداد وأنه مسالم لصالح المجوس وكان يقول أنا أرد دولة العجم وأمحو دولة العجم كما كان على صلة بعبـد اللـه الفاطمى فهـداه وعرض عليـه مساعدته حيث بعث بالرسل يحملون المـال الكثير للمهـدى فى شمال أفريقيا وأعلن رغبته فى الدخول فى طاعته ومات سنة ٣٢٢ بعـد أن فتح الرى وأصفهان وطرد سيده أسفار ٠

(٣٦) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٦٧

ولقـد رمى بعض السنيين أبا حاتم الرازى بتهم جمة فمنهم من اتهمه

(٣٧) البغـدادى : الفرق بين الفرق ٢٦٧ ـ ابن النـديم ـ الفهرست ٢٦٦ نظام المـلك سفرنامة : جـ ٢ ص ٢٤٧

(٣٨) Ivanow, A Gurde to Ismaili leterature P. 32—33.

أضواء خاطفة على مؤلفات الرازى :

ومن أهم مؤلفات أبى الحاتم الرازى كتاب الزينة وهو مكون من ١٢٠٠ صفحة تناول فيه كثيرا من الأمور الفقهية والفلسفية وعلوم ما وراء الطبيعة وغيرها من الموضوعات الأخرى كالفرق الدينية وقيم المعلومات الجغرافية ، وقد أهداه الى الخليفة القائم الفاطمي ولقد قال الاسماعيلية أن ذلك الكتاب لا يعتبر من كتبهم السرية(٣٩) بل أنه يبحث فى اللغة وحدها وكتاب « علوم النبوة » وهم من كتب فلسفة المذهب الاسماعيلى التامة وهو يحتوى على نظريات الاسماعيليين فى اللـه تعالى والرسل وفى النفس والهيولا والزمان والمكان وغيرها ، فى هذا الكتاب يرد الرازى على أحد الزنادقة الملاحدة ٠

ولا يقل كتاب الاصلاح فى أهميته عن هذه الكتب وقد ذكره حميد الدين الكرمانى داعى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر اللـه فى فارس ويتكون من خمسمائة صفحة وترجع أهميته الى ما جاء به من تأويل الآيات القرآنية وما أورده المؤلف عن الأنبياء(٤٠) ٠

ويذكر ابن النديم(٤١) كتاب الجامع وهو غير موجود الآن كما أنه غير معروف للبهرة الاسماعيلية ٠

من هذا نجد أن أبا حاتم الرازى له الفضل فى الاشادة بعبيد اللـه المهدى ودولته وفى النهضة بالمذهب الاسماعيلى فى شرق الدولة الاسلامية فضلا عما أسهم به فى نشر الثقافة الاسلامية عامة كالفلسفة واللغة والتفسير والفقه وما غير لك ولقد حاول أن يشرح نظريات الاسماعيلية ومبادئهم مما عرضه لاضطهاد السنين عامة والديالمة على وجه الخصوص وقد دعاه ذلك الى الاختفاء فى آخر حياته ومات سنة ٣٣٢هـ بعد تولية الخليفة الفاطمى القائم بقليل(٤٢) ٠

ثالثا ـ النسفى :

ومن هؤلاء الدعاة أبو زيد عبد اللـه النسفى البرزغى الذى قتل سنة ٣٣١هـ فى غضون المحنة الكبرى التى ألمت باسماعيلية المشرق وقد تتلمذ على الداعى الأمير الحسين بن على داعى خراسان والذى استجاب للداعى

---

(٣٩) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٦٨

(٤٠) Ivanow, A Gurde to Ismaili leterature P. 32—33.

(٤١) ابن النديم : الفهرست ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٦٩

(٤٢) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٦٩

غياث وكان من أعظم تلاميـذه علما ودراية وقـد سار النسفى على درب أستاذه الحسين فى التقرب الى الأمراء وكبار القواد فى حكومة نصر بن أحمد السامانى ولم يلى جهـدا فى أداء مهمته كاملة حتى استطاع أن يجعل كثيرا من أهالى خراسان ينجـذبون الى الاسماعيلية ـ ولم يرضى بما أحرز من نجاح فى هـذا السبيل بل عبر نهر جيجون متجها الى بخارى حيث أضاف الى نجاحه نجاحا آخر هائلا ٠

ويرجع الفضل فى معاونة النسفى ببخارى الى هؤلاء الأمراء وبفضلهم أيضا شق النسـفى طريقة الى قلب نصر بن أحمـد السدانى الذى رحب بمبادئه وطلب رؤيته ٠ كما تحول كثير من رجالها الى المذهب الاسماعيلى ولقـد كانت فرصة سانحة بل فريدة تمكن بها النسفى من جـذب نصر بن أحمـد ورجال بلاطه اليه وكان نصر من أكبر معارضى المذهب الاسماعيلى فقبض على أستاذ النسفى وسجنه حتى مات ، وقـد استغل النسفى هـذا وأشاد بزعامة ـ العبـد اللـه المهـدى وطلب دية أستاذه ومقـدارها ١١٩ ألف دينار ليرسلها للخليفة الفاطمى ، ولاقى ذلك ترحيبا من الأمير السـامانى على دفع الدية دليلا على اخلاصه للمذهب الاسماعيلى أولا ثم لعبـد اللـه المهـدى ثانيا(٤٣) ٠

ان علاقة النسفى بالبيت السامانى كونت فصلا ممتعا فى تاريخ الدعوة الاسلامية ببلاد المشرق فى عهـد عبيـد اللـه الفاطمى وأصبح للداعى العالم مكانة خاصة مرموقة فى دولة نصر بن أحمـد السامانى ، ولقـد اسـتغل النسفى هـذه الفرصة السانحة والمنزلة الخاصة له وبذل جهودا مكثفة فى جـذب الناس الى المذهب الاسماعيلى فى السر والعلن ٠ فأثار ذلك عليـه حفيظة كبار رجال الدولة السامانية من السنيين ودعا بعض القواد والعلماء للكيـد له ولأنصار المذهب الاسماعيلى ٠

ومن هنا يتبين الى أى مدى تغلغل المذهب الاسماعيلى فى خراسـان وبلاد ما وراء النهر ونرى مشهـدا من مشاهد اخلاص الدعاة لمذهبهم ولخليفتهم الفاطمى ، كما نستطيع أن نتبين ما كان يعانيه الدعاة من عنت واضطهاد(٤٤) ٠

ويرى ابن النـديم(٤٥) أن نصر بن أحمـد السامانى ندم فى آخـر حياته على اندفاعه وراء النسفى ولما مات جمع ابنه نوح الفقهاء لمناظرته

---

(٤٣) طه أحمـد شرف ـ تاريخ الاسماعيلية السياسى ـ مخطوط جـ ١ ورقة ٢٤٦ : ٢٤٨

(٤٤) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٧٠

(٤٥) ابن النـديم ـ الفهرس : ٢٢٦

فلما أفحموه الحجة قتله وقتل معه كثير من رؤساء الدعاة وأتباعهم من قواد نصر الدين الذين دخلوا فى المذهب الاسماعيلى .

ويرى نظام الملك أن السنيين من قواد نصر الدين دبروا مؤامرة على العرش السامانى لانضمام صحبه الى المذهب الاسماعيلى وقد استقر الرأى على عزل نصر وتنصيب كبير القواد على العرش وعملوا على اقامة حفل كبير يعلنون فيه بدء ثورتهم الا أن أحد المجتمعين أفشى سر المؤامرة لنصر بن أحمد وابنه نوح اللذين تحايلا على كبير القواد وقتلاه ثم خلع نصر بن أحمد نفسه وولى بعده ابنه الذى قتل النسفى وطارد الاسماعيلية .

ولقد أطلق الاسماعيلية على هذه النكبة الكبرى « اسم المحنة العظمى » ولا ريب فقد كان لهذه النكبة آثارها فى وقف انتشار الدعوة الاسماعيلية فيما وراء النهر منذ ذلك الحين أى منذ ٣٣١هـ الى أن رفع رايتها بعد قرن ونصف تقريبا ناصر خسرو(٤٦) ولقد سار على خطاه الحسن الصباح سنة ٥١١هـ صاحب الدعوة النزارية فى خراسان وفارس والشام .

وهكذا قام النسفى بدور بارز خطير فى الناحية السياسية بتأليف جبهة متينة قوية موالية لعبد الله المهدى فضلا عن دوره الخطير أيضا فى الناحية المذهبية ونشر المذهب الاسماعيلى فى خراسان وما وراء النهر .

---

(٤٦) كان ناصر خسرو من كبار أنصار الدعوة القديمة فى عهد المستنصر الفاطمى الذى عينه نائبا له (حجة) فى خراسان وبادخشان فكون جماعة يعرفون بالناصرية وهم يخضعون اليوم لأغا خان .

نشاطه العملى

أما من الناحية العلمية : فلقد برز النسفى وفاق كثيرا من الدعاة العلماء وذاعت شهرته في عالم الادب وفلسفة المذهب الاسماعيلى وله مؤلفات كثيرة من أشهرها كتاب « المحصول » ويظهر أنه من الكتب التى تعرضت لشرح أصول المذهب الاسماعيلى وقد جاء فيه على ما ذكر صاحب الفرق بين الفرق(٤٧) أن المبدع الأول أبدع النفس ثم أن الأول والثانى مدبر العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع ، ويرى البغدادى أن هذا التحقيق معنى قول المجوس أن البازدان خلق أهرمن وأنه مع أهرمن مدبران للعالم غير أن البازدان فاعل الخيران وأهرمن فاعل الشرور ولقد كان النسفى فى هذا الكتاب يرمى الى التوفيق بين أبى حاتم الرازى وزميله أبى يعقوب السجستانى ولكن يد الدهر لعبت بهذا الكتاب ولا نعرف عنه شيئا الا عن طريق الكرمانى داعى الحاكم فى كتابه الرياض ٠

وليس ذلك كله ما بذله النسفى فى التأليف فان له أيضا مؤلفات أخرى ككتاب « عنوان الدين » وكتاب « أصول الشرع » وكتاب « الدعوة المنجية »(٤٨) ، وكتاب « كون العالم » وهو فى علم الفلك ووصف العوالم « الكوزومجراف » ٠

لكنه مؤسس المبادىء الدينية ، وقد عثر عليه ضمن مجموعة خاصة ومن الغريب أن ذلك الداعى العالم الفيلسوف غير معروف لاسماعيلية اليوم ٠

رابعا السجستانى :

ولقد كان من أبرز علماء المذهب الاسماعيلى وأكبر دعاته أبو يعقوب اسحق بن أحمد السجستانى ويلقب دندان ٠ ولقد كان من كبار الدعاة والمساعد الأيمن للداعى النسفى ولقد كان الجدل والمناظرة فى مسألة النبوة وقتئذ أمرا يشغل أذهان المفكرين وموضوعا استحوذ على فكر الفلاسفة وعقول أحرار الرأى فى هذا الزمان مما دعى الدعاة الاسماعيلية فى عصر عبيد الله المهدى الى نشر مبادئهم تحت يافطة عريضة اسمها حرية الرأى ولقد عاصر أبو يعقوب السجستانى هذه الحقبة من الزمان التى اتسمت بطابع النهضة والمناظرة العلمية كما عاصر الأستاذ الرازى الداعى الأول وشاهد مناظراته للطبيب الفيلسوف محمد بن زكريا الرازى في كتابه أعلام النبوة فكان لأبى يعقوب باعا فى هذه المناظرة وأشهر سلاح الفلسفة فى وجه نقاد.

---

(٤٧) البغدادى : الفرق بين الفرق : ص ٢٧٨

(٤٨) ابن النديم — الفهرست : ٢٦٨

المذهب الاسماعيلى فكان من أعلام الدعاة الاسماعيلية وأحـد مفكريها الذين قاموا بوافر القسط فى النهوض بهـذه الفلسفة الاسماعيلية(٤٩) ٠

نظرة عامة عن مصنفات السجستانى :

كان لمؤلفات أبى يعقوب الكثيرة البارزة فى نهضة الفكر الاسلامى وعلى وجه الخصوص فى نهضة فلسفة المذهب الاسماعيلى ٠

ولقـد تناول البغـدادى(٥٠) بالذكر بعض هـذه المؤلفات فقال وصنف له أبو يعقوب السجستانى كتاب « أساس الدعوة » وكتاب الشرائع وكتاب كشف الأسرار » كما ذكر ايفانوا ما يزيد عن عشرين مؤلفا للسجستانى يتمتع بأكثرهم البهرة فى أيامنا هـذه وهم ـ اسماعيلية اليوم ـ ويصعب علينـا تتبع هـذه المؤلفات بالبحث ونكتفى بالاشارة الى أهمها وأعظمها أثرا(٥١) ٠

١ ـ كتاب اثبات النبوة وقـد قسمه الى مقالات سبع : وكل مقالة هى بمثابة باب ، وهى مقسمة الى فصول عـددها اثنى عشر ولقـد تناول السجستانى فى هـذا الكتاب موضوعات عـدة منها اثبات النبوة من كافة نواحيها من الناحية الطبيعية والروحية وغيرها من نواحى النبوة وتعرض بالذكر للامور التى اتفق عليها الرسل والتى اختلفوا فيهـا ومن أهم موضوعات هـذا الكتاب التى تناولها بالعرض والتفصيل وهى دور الرسل ودلائل النبوة لمحمـد صلوات اللـه عليه كما تناول موضوعا هاما أسماه عجائب القـرآ ن والشريعة(٥٢) ٠

٢ ـ كتاب الينابيع ولقـد قسمه السجستانى الى أربعين ينبوعا تعرض فيه لموضوعات شتى أهمها : ماهية المبـدع وعالم العقل والنفس والزمان والمكان والهيولا وسبب الخلق وبدء الخليقة والملائكة وعدم قابليـة العقل للفناء ، ومعانى الجنة والنار ومعنى صلب عيسى وهيوية القائم والوحـدة والبحث والثواب والعذاب والفرق بين تأييد اللـه والخلق(٥٣) وهم بين يدى البهرة اليوم ٠

---

(٤٩) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature P. 35
Hamadani : Some unknown Ismaiti AuthTors (J.A.S., 1933 P. 367).

(٥٠) البغـدادى ـ الفرق بين الفرق : ٢٦٧

(٥١) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٧٢

(٥٢) I Vanow. A Guide to Ismaiil literature P. 34, 36

(٥٣) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٢٧٢ نقلا عن : I Vanow. Ibid P. 35

ويرى الدكتور الهمدانى أن الدعاة ترسموا فى مؤلفاتهم خطى أبى يعقوب السجستانى فى تأليف كتاب الينابيع وسلكوا مسلكه واذا وازنا بين كتاب زهر المعانى والذى صاحبه ادريس عماد الدين عن الدعوة الاسماعيلية وبين كتاب الينابيع لوجدنا أن الداعى ادريس انتهج نهج السجستانى من قبل وسار على دربه ٠

٣ - كتاب الموازين وينقسم الى تسعة عشرة ميزانا وكل ميزان يتناول أمرا يتصل اتصالا وثيقا بالمذهب الاسماعيلى ففى احدى هذه الموازين « معرفة الحقيقة » وفى أخرى وجوب معرفة (المبدع) وفى ثالثة (العقل) ومعرفة أسمائه كما قصر أحد الموازين علم الفروع الثلاثة المتفرعة عن الأصليين(٥٤) (العقل والنفس) ٠

ومن أعظم هذه الموازين أهمية ما وقفه على النطقاء والأسس والأئمة والحجيج والدعاة وما الى ذلك من الموضوعات التى تفيد الباحث فى تاريخ التطور العقلى للمذهب الاسماعيلى(٥٥) ٠

٤ - **كتاب النصرة :** وهو تعليق على كتاب المحصول الذى ألفه النسفى وان كان بعض الاسماعيليين ينسبونه الى الكرمانى - داعى الدعاة الفاطميين فى فارس فى عهد الحاكم بأمر الله وأغلب الظن أن هذا الكتاب مفقود وأن الكرمانى اطلع عليه وأشار اليه فى كتابه وأبو يعقوب مفكر يتصف بالعمق ألف ما يزيد عن ٢٠ كتابا لغتها رصينة موجزة عميقة ٠

هؤلاء هم مشاهير هذه الدعوة ودعاة عبيد الله المهدى فى بلاد المشرق الذين استطاعوا أن يرفعوا علم الدعوة عاليا وأن يجذبوا الأمراء الى عبد الله المهدى فضلا عن أنهم شاركوا فى الحياة الثقافية مشاركة فعالة ويتبين للباحث أن الدعوة التى أسسها عبيد الله كان لها كبير الأثر فى تغذية الدعاة الى الحيوية والمبادىء التى جذبت الناس اليوم كما كانت تمد هذه البلاد من وقت الى آخر بدعاة درسوا فى مدارس الدعوة وتخرجوا على أيدى كبار أساتذتها(٥٦) ولقد أسهم فلاسفة هذا العصر فى النهضة الاسلامية العقلية فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ٠

---

(٥٤) د٠ حسن ابراهيم وطه شرف : عبد الله المهدى : ص ٢٤٥ وما يليها ٠

(٥٥) Fazee : The Ismailian Law of Matia (J.B.AS, 1929 P. 85

(٥٦) د٠ حسن ابراهيم وطه شرف : عبد الله المهدى : ص ٢٤٥ وما يليها ٠

خامسا ـ أبو حنفية النعمان المغربى :

هو أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله بن محمد بن أحمد بن حيون من قبيلة تميم ولقد أطلق عليه الاسماعيلية سيدنا القاضى النعمان تمييزا بينه وبين أبى حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفى المشهور كما يطلقون عليه أحيانا سيدنا الأوحد وأحيانا أخرى القاضى الأجل كما يعرف أيضا بأبى حنفية الشيعى(٥٧) ٠

عاصر أبو حنيفة النعمان الفاطميين فى المغرب وعمل فى خدمة عبيد الله الفاطمى حوالى سنة ٣١٣هـ ـ ٩٢٠م وانتهى الى المذهب الاسماعيلى وأخلص له بعد أن كان مالكى المذهب كسائر أفراد أسرته وفى أيام المهدى والقائم والمنصور عمل على جمع وحفظ ونشر الكتب الخاصة بالمذهب الاسماعيلى ، كما تولى القضاء فى أيام القائم بطرابلس وكذلك عمل بالقضاء أيام المنصور والمعز ثم رحل الى مصر وكان أحد أبنائه منصبا قاضيا وكانت رياسة القضاء الفعلية فى أسرة النعمان(٥٨) مع أن أبى الطاهر القاضى السنى كان متوليا احدى مناصب القضاء ٠

وكان النعمان مشرعا ودعامة ومن دعائم الدعوة الاسماعيلية كما يذكر ذلك عنه عماد الدين ادريس ونما عن أن كتاب العيون للداعى ادريس لم يأت عنه بذكر فانه من الراجح أن يكون قد وصل الى رتبة الحجة(٥٩) ٠

وأغلب الظن أن ذلك يرجع الى اشتغاله بالقضاء ويقول ابن خلكان عن قاضيه الواصل معه من المغرب أبو حنفية النعمان ابن محمد الداعى(٦٠) والحق أن أبا حنيفة النعمان كان رئيسا للقضاء كما كان داعيا وقد أفاد الدعوة الاسماعيلية بكثرة مؤلفاته فى الفقه الاسماعيلى وفى المناظرة والتأويل والسيرة والتاريخ والوعظ وغير ذلك ومن الثابت أنه رتب ألف بضعة وأربعين كتابا بقى منها حتى اليوم نحو عشرين كتابا وضاع الباقى ٠

---

(٥٧) Fazee : The Ismailian Law of Matia (J.B.AS, 1929 P. 85.

(٥٨) د ٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٧٤

(٥٩) د ٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ٤٧٤

(٦٠) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان : ج ٢ ص ١٥٦

مصنفاته :

ومن أهم كتبه كتاب دعائم الاسلام واسمه الكامل « دعائم الاسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام » ويتناول الكلام عن فقه الاسماعيلية ويقع فى مجلدين فخمين يشمل كل منهما على سبعمائة صفحة ولهـذا الكتاب منزلة خاصة عنـد اسماعيلية اليوم فى اليمن والهنـد ، ويقول الداعى ادريس فى كتاب العيون « ان الخليفة المعتز هـذا الذى حث النعمان على تأليف هـذا الكتاب وكان قـد مثل بين يديه مع كثير من الدعاة ، متناولوا الكلام عن الأحاديث الموضوعة والاختلاف فى الرواية فقال المعتز : هـذا الحديث المشهور « اذا ظهرت البـدع فى أمة فليظهر العالم علمه والا فعليه لعنة اللـه » ونظر المعز لدين اللـه الى القاضى النعمان بن محمـد وقال « أنت المعنى فى هـذا الأوراق يا نعمان ثم أمر بتأليف دعائم الاسلام وأصل أصوله وفرع فروعه وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه عن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم(٦١) .

وكانت الدعائم من أهم المراجع فى فقه الاسماعيلية وفيه يزيد النعمـان قواعـد الاسلام ويجعلها سـبعة وهو العـدد الذى يفضله الشيعيون عامة ويضيف الى القواعـد الخمس المعروضة عنـد السنيين الولاية أى حب أهل البيت والطهارة وقـد استغل النعمان ميول المذهبية فى تأليف هـذا الكتاب .

وكان دعاة الاسماعيلية يرجعون الى كتاب الدعائم فى أحكامهم وشجعهم الخلفاء على ذلك ودليل ذلك أن الخليفة الحاكم بأمر اللـه (٤١١هـ) فى ذى القعـدة من ٣٩١هـ (أكتوبر سنة ١٠٠١م) أرسل الى هارون بن محمـد داعية فى بلاد اليمن رسالة نصها :

(ولتكن فتواك للمستفتين فى الحلال والحرام من كتاب دعائم الاسلام دون سواه من الكتب المتنقلة(٦٢) .

ولقـد نهج الوزير يعقوب بن كلس فى كتابه مصنف الوزير منهـج كتاب الدعائم كما أسهب فى الدعاة المتأخرون فى مدح هـذا الكتاب فنجـد

---

(٦١) د. حسن ابراهيم — تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٥ نقلا عن عماد الدين زنكى — ادريس — عيون الأخبار — المجلة الاسيوية الملكية ١٩٣٤ ص ٢٢

Hamadani, some unknown Ismaili Authors (3—R.A.S. 1933) P. 369.

(٦٢) أى الزائدة والدخيلة .

حميد الدين الكرمانى داعى الحاكم فى فارس يشيد به فى كتابه « راحة العقل » حتى جعله فى المرتبة التى تلى القرآن والحديث ·

كما يقول المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى(٦٣) « وكان بناء المجالس التى تعقد بحضرته فى ليالى الجمعات على أن يبتدىء بقراءة شىء من قوارع القرآن ويثنى من كتاب دعائم الاسلام » ·

وعلى الرغم من ضياع أكثر مؤلفات النعمان الا أن ما تبقى من مؤلفاته يعد ثروة ثمينة لأنه ضرب فى جميع الأنشطة العلميه(٦٤) ولا يزال أكثر ما بقى من هذه المؤلفات فى حوزة اسماعيلية اليوم ·

وفيما يلى نظرة سريعة على بعض مؤلفاته فى مختلف الانشطة العلمية ·

ومن أهم كتبه « الايضاح » وكان مطولا جدا وقيل أنه يشغل مائتين وعشرين كراسة وكتاب الينبوع وكتاب مختصر الآثار وكتاب « الطهارة » ومن كتبه الفقهية كتاب مختصر « الايضاح » وكتاب كيفية الصلاة وكتاب « منهاج الفرائض » وغيرها(٦٥) ·

ولقد لعبت يد الدهر ولم يعثر للنعمان على كتاب واحد من كتب المناظرة التى ألف فيها « الرسالة المصرية فى الرد على الشافعى » والرسالة ذات البيان فى الرد على ابن قتيبة » وكتاب فى الرد على أحمد بن سريج البغدادى » وكتاب اختلاف أصول المذاهب ولم يبق للنعمان من كتب التأويل سوى كتاب « أساس التأويل » وكتاب تأويل الدعائم ولم نعثر على اثر لكتابه « نهج السبيل الى معرفة علم التأويل » ·

أما ما تركه من كتب العقائد فهى : كتاب « العقيدة المختارة وكتاب « الهمة فى اتباع الأئمه » ومن مؤلفاته فى العقائد التى ضاعت كتاب « الدعاء » وكتاب « الشروط » وكتاب « التعاقب والانتقاد » وكتاب « الحلى والثياب » ·

وبالنسبة لمصنفاته فى الأخبار والسير فلدينا منها كتاب « شرح الأخبار » ولم نعثر على الأرجوزة التى تسمى « ذات السنن » والأرجوزة المسماة « ذات المحن ويعد كتابى « افتتاح الدعوة الزاهرة » و « مناقب بن هاشم » من أشهر مؤلفاته فى التاريخ ولكن للأسف لم يعثر لهما على أثر ·

---

(٦٣) مؤيد الدين الشيرازى : السيرة المؤيدة ص ٦٢

(٦٤) د· حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٦

(٦٥) Hamadani : some unknown Ismaili Authors (J.R.AS 1933 P. 369).

ومن مؤلفاته فى الوعظ كتاب المجالس والمسايرات وكتاب « معالم الهدى » و « الرسالة الى المرشد الداعى بمصر فى تربية المؤمنين » ولكنها ضاعت ومن المؤلفات التى ينسب اليه تأويل الرؤيا وكتاب « منامات الأئمة » وكتاب « التقريع والتصنيف » وكتاب « مفاتيح النعمة » وأيضا كل هذه المؤلفات ضاعت كما ضاع ما ألفه فى الحقائق مثل كتاب « حدود المعرفة وكتاب فى الامامة وكتاب « اثبات الحقائق » وكتاب « التوحيد والامامة »(٦٦) ٠

ومن الكتب التى لم تثبت صحة نسبتها الى النعمان كتاب « تقديم الأحكام » وكتاب « الراحة والتسلية » وكتاب « سيرة الأئمة »(٦٧) ٠

منهج النعمان من خلال مؤلفاته :

ومن سمات مؤلفات النعمان أنه لم يسرف فى التأويل كما ذهب معظم دعاة الاسماعيلية خاصة دعاة فارس ولهذا يعتبر أنه خير من مثل المدرسة الاسماعيلية القديمة التى التزمت بعدم اثارة شعور الرعايا السنيين على الحكم الفاطمى(٦٨) ٠

وبعرضنا لكتاب المجالس والمسايرات نجد أنه يقع فى ثلاث مجلدات وينقسم الى قسمين أولاهما ويقع فى ٣٧٣ صفحة ثانيهما مشتمل على مجلدين ويشغلان ٦٧٢ صفحة ويعتبر هذا الكتاب خير ما ألفه فى وصف حياة الفاطميين فى الدور المغربى حيث تناول حياة الخلفاء الأربعة : المهدى والقائم والمنصور والمعز ٠ ومن خلال هذا المصنف نستطيع معرفة تاريخ الفاطميين فى الدور المغربى وحياة الخلفاء الخاصة ووصف كامل لقصورهم وكيف كانوا يقضون أوقات فراغهم ويعتبر وثيقة تاريخية هامة عن نظام الحكم المتبع فى عهد المعز ٠

كما تعرض النعمان فى هذا الكتاب لاستقصاء أحكام لأئمة من أهل البيت مثل جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر ، وجدهما على بن أبى طالب كما تصدى للرد على خصوم المذهب الاسماعيلى ٠

ونستدل من هذا المؤلف على مدى براعة ونبوغ النعمان فى القضاء والفقه كما يوضح مدى ما وصل اليه المعز لدين الله من عبقرية وغزارة معلومات على الرغم من صغر سنه(٦٩) ٠

(٦٦) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٧
(٦٧) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٧
(٦٨) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٧
(٦٩) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٨

ويعد كتاب « المجالس والمسايرات » من أكثر المؤلفات المعاصرة ـ للمعز ـ أهمية فنجده مثلا يتعرض فى اسهاب لعلاقة المعز بالأمويين فى الاندلس وتناول أسباب العداء بينهما ومدى قوة كل منهما ٠ كما كشف عن مخاوف عبد الرحمن الناصر الأموى من أساطيل المعز ومن الحملات البحرية التى شنها عليه وخوفه على عرشه من أن يقع فى أيدى الفاطميين ٠ وتعتبر الرسائل المتبادلة بين عبد الرحمن الناصر الأموى والمعز وثيقة تاريخية لجهود الامويين فى أفريقية التى كانت تتأرجح بين الانزلاف والتهديد فى أسلوب أدبى منطقى ٠

كما عرض النعمان لعلاقة المعز بالدولة البيزنطيه وكيف أن مسلمى جزيرة « كريت » الذين كانوا تحت حكم العباسيين يطلبون النجدة من المعز لحرب الروم وتدل الرسائل المتبادلة على مدى ما وصلت اليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ(٧٠) ٠

وكذلك صور كتاب « المجالس والمسايرات » موقف المعز من صاحبى سجلماسة وفاس ٠ كاشفا الأسباب التى أثارت غضب المعز على صاحب سجلماسة وذلك لتلقيبه بألقاب الخليفة مثل لقب « أمير المؤمنين » هذا بالاضافة الى أنه يكشف كيف كان المعز يمنى نفسه وأنصاره لاخضاع بلاد المشرق وامتلاك الشام ٠

ويعتبر أنصار المذهب الاسماعيلى أن كتاب المجالس والمسايرات من أهم كتب الدعوة الاسماعيلية ومن أهم مراجعهم حيث أن مؤلفه استمد مادته من المعز الفاطمى هذا الى جانب أنه امتاز بأسلوب سهل رقيق منسجما فى ألفاظه ومعانيه حتى صار قطعة أدبية رائعة ٠

وخلاصة القول ـ فان هذا الكتاب مرآة صادقة للأدب الاسماعيلى والعقائد الاسماعيلية ولا يمكن لباحث فى تاريخ الفاطميين فى الدور المغربى عامة وفى عهد المعز خاصة الاستغناء عنه(٧١) ٠

ولقد قسم النعمان كتاب « المهمة وفضل الأئمة » الذى يتكون من جزئين ويشغل كل منهما ٤٦ صفحة فأما الجزء الأول فانه يشمل ثمانية فصول بينما يشغل الجزء الثانى الى احد عشر فصلا ومما هو جدير بالذكر أن هذا الكتاب الذى عثر عليه سنة ١٩٣٥ ترجع أهميته الى أنه من أقدم المراجع

---

(٧٠) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٧٩

(٧١) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٨٠

التى تمثل الأدب الاسماعيلى فى عصوره الأولى ومن أصدق المؤلفات الاسماعيلية التى قصد بها تدريب هذه الطائفة على التفانى فى الاخلاص لمبادئها حيث يتناول هذا الكتاب بقسميه الحدود الدينية وواجبات الأتباع نحو الدعاة والأئمة فنراه يعرض فى الفصل الثالث من الجزء الثانى(٧٢) نهى اتباع الأئمة عن الحسد والبغى والحقد وسوء الظن بينما اختص الفصلين الرابع(٧٣) من نفس الجزء على ذكر الأمر لاتباع الأئمة بالحلم والعفو والتواضع لله تعالى(٧٤) ولهم « أى الأئمة » اطراح (ترك) الكبر والأنفة واعطاء الحق الذى يلزمهم أما الفصل السادس(٧٥) فقد اختص بما ينبغى لاتباع الأئمة فيما بينهم من التعاطف والتواصل والتواد كما أشار هذا الكتاب الى فضل الأئمة الاسماعيلية كافة وحاجة العالم(٧٦) اليهم كما يجب على الاتباع وجوب الوفاء بعهود الأئمة ورعايتها والجهاد معهم أى مع الأئمة جهاد فى سبيل الله(٧٧) ٠

ولقد خصص النعمان الفصل السادس(٧٨) من الجزء الأول فى شرح الاشراح المعالى عند الاسماعيليين حيث بنى استراعه المالى فى هذا المصنف على أسس مستمدة من القرآن وهى أن المستجيب يؤدى وهو طائع مختار كما وضح فى نفس الفصل ما يجب للأئمة الصادقين أخذه من أموال المؤمنين والمؤمنات وتقرير ما يجب على الأتباع دفعه للامام وهو خمس أموالهم معتمدا فى ذلك على بعض الأحاديث النبوية وأحاديث الأئمة الى أن يقول « فاعملوا أيها المؤمنين - لما علمكم لله » أن ما غنمتم من شىء أى كسبتوه فان لله خمسه تتقربون به اليه و « للرسول » تدفعونه الى امام عصركم ثم اليه الأمر فيه وفيما يعطى منه فقراء أهل بيته وأيامهم وأبناء سبيلهم(٧٩) ٠

وهذا يفسر قوله تعالى : واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »(٨٠) ٠

---

(٧٢) القاضى النعمان - الهيئة وفضل الأئمة : ج ٢ ص ٥٢ - ٥٥
(٧٣) القاضى النعمان - الهيئة وفضل الأئمة : ج ٢ ص ٥٥ - ٥٦
(٧٤) القاضى النعمان - الهيئة وفضل الأئمة : ج ٢ ص ٥٦ - ٥٧
(٧٥) القاضى النعمان - الهيئة وفضل الأئمة : ج ٢ ص ٥٧ - ٥٨
(٧٦) سمى الفصل من كتاب الهيئة فى وجوب الأئمة : ج ٢ ص ٨ : ١٣
(٧٧) القاضى النعمان - كتاب الهبة : ج ١ ص ٣٠ : ٣١
(٧٨) القاضى النعمان - كتاب الهبة : ج ١ ص ٣٠ : ٣١
(٧٩) القاضى النعمان : ص ٢٣
(٨٠) القرآن الكريم - سورة الأنفال : ٣٨ : ٤١

ويؤكـد النعمان فى شرحه على ضرورة دفع الخمس لامام الزمان لأنه هو الذى حل محل الرسول صلى اللـه عليه وسلم بعـد موته ٠ ولم يكتف النعمان بوجود دفع الأتباع الخمس من أموالهم للائمة بل قال : « فعلى جميع المؤمنين أن يدفعوا خمس ما غنموه فى كل عصر الى امام ذلك الزمان من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أمر عز وجل مع ذكاة أموالهم(٨١) ٠

كما فسر النعمان أن الأئمة الاسماعيلية تتخـذ من قرابتهم من الرسول بأحقيتهم بالوراثة من العباسيين لأنهم أهل بيته القربين سندا لمحاربتهم ٠

كما عقـد النعمان عـدة فصول أشاد فيها بالأئمة واوجب على الاتباع أن يقدسوهم والتأديب فى طلب الحوائج منهم(٨٢) كما نهاهم عن انكار افعال أئمتهم(٨٣) ٠

وبذلك يكون النعمان قـد وضع ميثاق المذهب الفاطمى الذى يحتـم على المؤمنين الاسماعيلية أن يسيروا على هداه ومن هنا فان المعز قـد جنى كل الفائدة من رجال دعوته وعلى وجه الخصوص تلك المؤلفات التى ربط أصحابها الأشياع بايمانهم الخليفة الفاطمى ومن أهم الكتب واندرها والتى ضربت بهم مثلا فى توطيد أواصر المحبة والوفاء وبين رياسة الدعوة فى المنصورية وفى القاهرة ، وبين الأتباع فى سائر أرجاء المعمورة كتاب الهمة ٠

ولقـد اهتم النعمان بتنظيم العلاقة بين الدعاة ومستجيبيهم من جهة وبتحـديدها بينهم وبين الأئمة من جهة أخرى واختط لهم الخطوط العريضة التى يجب على الدعاة أن ينبعوها فى جـذب الأشياع ودفعهم على التجمل والتحلى بالصفات الطيبة كالتقوى والورع والعفاف والمعاف حتى يكونوا قـدوة للأشياع ويثمر تأثيرهم فى نفوسهم ولقـد أوضح النعمان فى كتابه كيفية اختيار الدعاة لمستجيبيهم وألزمهم بأن يدرسوا حالة الأتباع النفسية والعقلية ، دراسة مستفيضة حتى تصل المعارف الى عقولهم ويستطيعون فهمها وتمثيلها(٨٤) ٠

كما نصح النعمان الدعاة أن يتقربوا الى أدعيائهم ومريديهم بهم وأن يجعلوا من أنفسهم أباء وأخوة ومعلمين وعلى الداعى أن يقرب اليه أصحاب

---

(٨١) القاضى النعمان ـ كتاب الهبة : جـ ١ ص ٣٢
(٨٢) القاضى النعمان : ص ٧٨ ـ ٨٠
(٨٣) القاضى النعمان : ص ٨٠ ـ ٨٤
(٨٤) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٨٣ و د٠ على حسن الغربطلى أبو عبـد اللـه الشيعى : ص ٣٢

النوايا الطيبة والنفوس الطاهرة والسرائر الصافية دون اعتبار للجاه والمال . فان تكريم أصحاب الدين والتقوى وتفضيلهم عن سواهم من أقرب الأمور الى ارتباط الناس بالمذهب الاسماعيلى والدخول فيه(٨٥) كما أن ذلك يصبغ الامام بصبغة الهيبة والوقار مع التحلى باللين وحسن الصمت وقلة الكلام مستشهدا بقول جعفر الصادق « أطلبوا العلم وتزينوا معه بالوقار ، والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه وتعلمونه ، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقهم ، من طلب العلم ليدافع به العلماء ويمارى به الشعراء ، أو ليصرف به وجوه الناس اليه ويتكبر عليهم فليتبوأ مقعده من النار ·

ان الرياسة لا تصلى الا لأهلها »(٨٦) ·

كما حتم النعمان على الدعاة أن يكونوا قضاة عدل يتحلوا بالنزاهة ويحكمون بالقسطاس المستقيم بين المستجيبين وأن يجعلوا صلاح أحوال الأشياع نصب أعينهم ولذا فان المؤلف جعل الفصل العاشر من الجزء الثانى(٨٧) قاصرا على ذكر ما ينبغى لمن استرعى أمر رعايا الأئمة باتباع العدل بين من ولوا أمرهم من الأئمة ·

ومن هنا يتبين للباحث بأن النعمان المطلع على كل أسرار هذه الدعوة والذى كان قاضى قضاة الدولة للعلماء أن يسود الشرع الاسماعيلى ، ولا غزو فانه قد كان الساعد الأيمن للمعز ولسانه الناطق وبهذا كله يحق له أن يتربع على عرش الدعوة الاسماعيلية فى المغرب ويورث أبناءه هذه الزعامة فى مصر بعد أن توفى فى شهر جمادى الأخر سنة ٣٦٣هـ وصلى عليه المعز لدين الله الفاطمى ·

سادسا ـ جعفر بن منصور اليمن :

اشتهر جعفر بن المنصور (بن حوشب)(٩٠) بحب الفاطميين منذ نعومة أظافره ·

---

(٨٥) القاضى النعمان ـ كتاب الهبة : جـ ٢ ص ٨٩
(٨٦) القاضى النعمان ـ كتاب الهبة : جـ ٢ ص ٨٩ ، ٩٠
(٨٧) القاضى النعمان ـ كتاب الهبة : جـ ٢ ص ٨٤ : ٨٨
(٨٨) د· على حسن الخربطلى ـ أبو عبد الله الشيعى : ص ٢٦
(٨٩) د· طه شرف ـ تاريخ الاسماعيلية أساسى : مخطوط جـ ١ ورقة ٢٨١ ـ ٢٨٢
(٩٠) اختلف المؤرخون فى تفاصيل اسم ابن حوشب فابن الأثير (الكامل جـ ٧ ص ٣٠) وابن خلدون ـ العبر : جـ ٣ ص ٣٧١ يذكر أن اسمه هو رستم

قال النعمان عنه أنه من أهل الكوفة من أهل بيت علم وتشيع درس القرآن الكريم والحـديث والفقه واعتنق أول أمره تعاليم الاثنا عشرية أصحاب محمـد بن الحسن بن على ابن محمـد بن على بن مرسى بن جعفر الصادق ، وكان يعتقـد أنه المهـدى ، ثم أصبح من أكبر دعاة الاسماعيليين • فاهتم بنشر الدعوة الاسماعيلية خارج بلاد اليمن ، وأرسل دعاته الى اليمامة والبحرين والسند والهنـد ومصر والمغرب(٩١) •

كما كان يدعو للامام محمـد الحبيب(٩٢) •

واختلف مع أخيه الحسن بن منصور الثائر على الخليفة المهـدى فى آخر حياته ولقـد غادر جعفر بلاد اليمن حنقا على أخيه قاصـدا بلاد المغرب (سنة ٣٢٢هـ ـ ٩٣٣م) ، وأنه كان يرسله مؤنبا اياه على ما اقتـرفه ضـد الفاطميين(٩٣) •

ولقـد تمتع جعفر بمكانة عالية فى الدولة الفاطمية بالمغرب وبمصر ، وكانت له منزلة عنـد القائم والمنصور والمعز حتى اتخـذه « باب ابواب » فى مصر ، وهى درجة أعلى من رتبة قاضى القضاة •

ولقـد كان لفراره من بلاد اليمن حبا فى النهوض بالمذهب الاسماعيلى أثر كبير فى تقـدير الخلفاء الفاطميين له وحبهم اياه وعطفهم عليه •

جعفر بن منصور من خلال مؤلفاته :

ولجعفر آثار علمية لدى البهرة الى يومنا هـذا ، ومن أهم كتبه كتاب تأويل الزكاة » وهو موجود بمكتبة الجامعة بلنـدن ، وقـد ألفه على ما يبـدو فى عهـد المعز لدين اللـه ، ولقـد ذهب هـذا الفقيه الى تأليه الأئمة مؤيدا نظرية الاسماعيلية التى تقول « من عرف امام زمانه عرب ربه »(٩٤) ويقول دى غويه فى كتاب تأويل الزكاة « أن به كثيرا من مبادىء القرامطة الخارجة

بن الحسن بن حوشب بن دادان النجار • بينما يرى المقريزى أن الجد الأكبر هو زاذان ألفاظه لحنقا خاص ٤٠ ويذكر النعمان (افتتاح الدعوة ص ٣٢) ان اسمه هو (أبو القاسم الحسن بن حوشب بن زادان الكوفى) •

(٩١) د• على حسن الخربوطلى ـ أبو عبـد اللـه الشيعى : ص ١٨ : ١٩ نقلا عن افتتاح الدعوة ص ٣٣

(٩٢) المصـدر اسابق : ص ٢٢ نقلا عن افتتاح الدعوة ص ٤٧ ـ ٥٣

(٩٣) الحمادى اليمانى ـ كشف أسرار الباطنية وأخبار القراطمة ص ٤٠

(٩٤) د• حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٨٥

على الدين(٩٥) ويذهب الأستاذ ماسينيو الى القول بأن جعفر ألف هـذا الكتاب فى سنة ٣٦٠هـ ويسميه تأويل الفرائض ويذهب الأستاذ ايفـانو الى أن كتاب تأويل الفرائض هو نفس كتاب جعفر المسمى الفرائض وحدود الدين(٩٦) ٠

ولجعفر بن منصور من الكتب أيضا كتاب « سرائر النطقاء » وكتاب « الشواهد والبيان » المخطوط بدار الكتب المصرية بمكتبة تيمور باشا تحت رقم (١٨٤) عقائد ، وله من الكتب كتاب « الكشف » وهو كتاب قيم فى التأويل أول فيه بعض آيات من القـرآن فى شىء كبير من الغلو ٠

من ذلك ما ذهب اليه فى تفسير قوله تعالى : « والتين والزيتون وطور سنين وهـذا البلد الأمين ـ بأن التين هو الحسن والزيتون هو الحسين وطور سنين هو سيدنا محمـد (صلعم) والبلد الأمين على بن أبى طالب الأمر الذى حـداه أن يأمر بحفظ محتويات هـذا الكتاب وعـدم اذاعة أسراره(٩٧) ٠

ولجعفر بن منصور من الكتب كتاب الفترات والقرانات « ويسمى الجعفر الأسود » ويظهر أن كتاب « الجعفر » الذى ينسب الى جعفر الصادق ٠ والذى يعتقـد الاسماعيلية أن الذى وضع أصوله على بن أبى طالب يستقى علم التأويل والباطن فى سلالته كما يظهر أن الجعفر الأسود من وضع أحد الدعاة المتأخرين لأنه يتناول حوادث وقعت فى القرن الخامس الهجرى ويتناول هذا الكتاب حوادث بعض الأنبياء من أجـدادهم ويتعرض لشرح تأثير الكواكب فى الدعوة وأطوارها فهو اذا نوع من الملاحم التى أغرم بها الاسماعيلية ٠

ومهما يكن فان جعفرا سلك فى مؤلفاته مسلك التأويل ونادى بمبـدأ استمرار الأديان والحلول أى حلول الأنبياء من شخص الى آخر(٩٨) ٠

---

(٩٥) .

(٩٦) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٨٥ نقلا عن عجب نامة : ص ٣٣٢

(٩٧) وهـذا التفسير باطل من أساسه ويدل على أن جعفر لم يطلع على تفسير من سبقوه من الأئمة وأن هـذا التأويل يخرج بالمجتمع الاسلامى عن الأصول الصحيحة لفهم الكتاب الكريم موجهه نظرى أن مطلع السـورة هو قسم بما خلق اللـه من نبات حلوة ومره وقسم بالمكان ٠

(٩٨) المكان القـدسى على أن اللـه عز وجل خلق الانسان فى أحسن تقويم فهو مكرم كما ذكر عز وجل ولقـد كرمنا بنى آدم ٠

ومن هنا نرى أن نشاط الداعى جعفر بن منصور كان خصبا فى دراسة عقائد المذهب الاسماعيلى ، ويفص علينا الداعى ادريس عماد الدين فى كتابه عيون الأخبار ما يشعرنا بسمو مركز جعفر فى الدعوة الاسماعيلية ، وذلك بأن أبا حنيفة النعمانى قاضى قضاة المعز لدين اللــه مرض وهو بمصر . فزاره كثير من علية القوم من بينهم جعفر باب أبواب المعز ، ولما شفى أبو حنيفة سأله المعز عمن زاره فذكر أسماءهم جميعا سوى جعفر ابن المنصور . فأخذ المعز يمدح جعفرا ثم قدم لأبى حنيفة رسالة وطلب منه قرائتها وسأله عن مؤلفها وقد نالت هذه الرسالة اعجاب قاضى القضاة فقال عنها أنها للخليفة المعز لدين اللــه فأجابه المعز بأنها من وضع مولاه الرئيس جعفر بن منصور ٠

وفى وصف المعز جعفر بالرئيس الوالى ما يشعر بعلو مكانته لذلك نزل القاضى أبو حنيفة على الفور وذهب دار جعفر الداعى وعبر له عن احترامه وتقديره وهكذا كان مركز جعفر يفوق مركز النعمان ٠

ومن هنا نتبين أن جعفرا أحد اثنين من أشهر الدعاة الذين انجبتهم مدارس الدعوة فى بلاد المغرب خاصة وقد مات بعد رحيله الى مصر مع المعز(٩٩) ٠

وهكذا سمت الدعوة الاسماعيلية بأدابها فى عهد هذا الخليفة وبلغت أوجها على يد الامام المعز نفسه وقاضى قضاته النعمان وباب أبوابه جعفر بن منصور ، وكان لهذه المدرسة التى تقدسها هؤلاء الثلاثة أثارها فيما بعد واستطاع أحد تلاميذها وهو حميد الدين الكرمانى أن يرفع منارة الدعوة فى عهد الحاكم فى كل من فارس ومصر فكان المؤيد الشيرازى والحسن الصباح أثر من أثار هذه المدرسة(١٠٠) ٠

سابعا ـ حميد الدين الكرمانى :

هو أحمد حميد الدين بن عبد اللــه محمد الكرمانى فيلسوف اسماعيلى كبير وشخصية علمية مرموقة غامضة عاش فى عصر علمى زاهر ،

---

(٩٩) د٠ حسن ابراهيم ـ تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٨٦

(١٠٠) د٠ حسن ابراهيم وطه شرف ـ المعز لدين اللــه : ص ٢٥٨ وما يليها ٠

وداع جليل خط فى صفحات الفكر أقوم البحوث وأعمق الدراسات وترك لمن بعـده كنزا ثمينا وتراثا خالدا وعـددا من المؤلفات القيمة(١٠١) ٠

واشتهر الكرمانى بانتاجه الجم وتفكيره العميق وكان داعيا للحاكم بأمر اللـه فكتب عدة رسائل ناقش فيها مذهب الدروز وهم الاخوان الذين تفرعوا من الاسماعيلية(١٠٢) ٠

ويلقبه دعاة اليمن وعلماء الاسماعيلية بكلمة « سيدنا » تعظيما له وتكريما لمكانته العالية عنـدهم وقـدره ويعتبره فلاسفة العالم الاسلامى أعظم عالم أنجبتهالمدرسة الفكرية الاسماعيلية فى العصر الفاطمى ، أماكتابه راحة العقل فهو من الكتب النادرة القيمة التى قلما يوجـد بين كتب الفلاسفة المعاصرين ما يعادله عمقا وقوة ومتانة ، وهو رغما عن ذلك مطلبه قليل ورواجه بطىء محـدود ، وهو مقصور على الخواص من العلماء والأفـذاذ والمتبحرين من الفلاسـفة ٠

ولقـد قال الداعى الاسماعيلى المؤرخ اليمنى الكبير ادريس عماد الدين فى كتابه « عيون الأخبار » فقال : « هو أساس الدعوة التى عليه عمادها وبه عمل واستقام منارها وبه استبانت المشكلات وانفرجت المعضلات(١٠٣) ٠

ووصفه الداعى الاسماعيلى السورى نور الدين أحمـد فى كتابه فصول وأخبار فقال : « لو أن الدعوة الاسماعيلية لم تنجب غير الكرمانى لكفاها فخرا ومجـدا ولكان ذلك كافيا » ٠ ولقـد ظهرت آثاره وعظمة شـأنه فى عهـد الخليفة بأمر اللـه الفاطمى وكان لقبه « حجة العراقين » ٠

أى أنه كان مسئولا عن شئون الدعوة الثقافية فى فارس والعراق وفى القاهرة كان مركزه كمقام « حجة جزيرة » فهو من أحـد الحجج الاثنا عشر المكلفين بادارة شئون الدعوة الامامية الاذاعيـة الفكرية فى العـالم ثم أنه استخدم بعـد ذلك كرئيس لدار الحكمة بالقادرة وهى المؤسسة الثقافيـة التى نستطيع أن نقول أنها أول جامعة أنشئت فى العالم ٠

---

(١٠١) محمـد حسن الأعظمى ـ عبقرية الفاطميين : أضواء على الفكر والتاريخ الفاطمى : ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣

(١٠٢) هنرى كوربان ـ ترجمة نصر مردة وآخرين : تاريخ الفلسفة الاسلامية : ص ١٣٥ ـ ١٣٦

(١٠٣) محمـد حسن الأعظمى ـ عبقرية الفاطميين : أضواء على الفكر والتاريخ الفاطمى : ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣

وفـد على القاهرة ٤٠٨هـ بناء على دعوة الصادق المأمون (اختكين الضيف) داعى دعاة الدولة الفاطمية فى عهد الحاكم بأمر اللـه عنـدما حمى وطيس المعارك الدينية وقامت الدعوات الجـديدة وراجت الشائعات والبدع التى كانت تهـدف الى المبالغة والغلو والقول بألوهية الحاكم بأمر اللـه فألقى الدروس والمحاضرات فى دار الحكمة وقاوم الدعوات الجـديدة التى تتنافس ومبادىء الفاطميين الامامية .

وعلى الرغم من أن الكرمانى كان فيلسوفا من فلاسفة العالم الذين صالوا وجالوا على مسرح الفلسفة الكونية وبذل جهودا كبيرة لايجاد مدرسة فلسفية ترتكز على أسس عقلية جـديدة . فانه كان من الفلاسفة المغمورين فى عالمنا الفلسفى .

أضواء على مؤلفات الكرمانى :

وفى الحقيقة ان دراسة انتاجه ومؤلفاته من الأهمية بمكان وأنها تعطى صورة واضحة عن أثر الفلسفة فى تاريخ الفكر بالنسبة للمهتمين بالدراسات الشرقية الاسلامية(١٠٤) .

ولقـد تمكن الكرمانى من أن يضـم الى المـذهب الاسـماعيلى والى الموصل المقلـد بن يوسف حتى خطب على منبر الموصل للامام العزيز الخليفة الفاطمى سنة ٣٨٢هـ .

ولقـد ورد فى المؤلفات الاسماعيلية أن الكرمانى استدعى للقاهرة سنة ٤٠٨هـ فكان يحضر مجلس داعى الدعاة حيث يلقى أبناء الدعوة عليه المسائل التى جعلوها الى الامتحان ذريعة والى بسط الشغب شريعة وكان يجيب عليها . وكثير من رسائله هى ردود على من رآهم حادوا عن الدعوة الاسماعيلية أو ابتدعوا فيها(١٠٥) .

ومن رسائله « الرسالة الكافية » فى الرد على الشريف الهارونى الحسنى

---

(١٠٤) محمـد حسن الأعظمى ـ عبقرية الفاطميين ـ أضواء على الفكر والتاريخ الفاطمى : ص ٢٢٤ ـ ٢٢٨

(١٠٥) د. عبـد الرحمن بدوى ـ مذاهب الاسلاميين : جـ ٢ ص ١٩٧ ـ ١٩٨

والرسالة الواعظة فى الرد على الفرغانى بن الأحزم أحد دعاة الدرزية ورسالة مباسم البشارات بالامام الحاكم ورسالة الصوم وغيرها(١٠٦) ٠

والكرمانى فى كتبه يتحدث عن الفلسفة الطبيعية والالهية كما فى « راحة العقل » الذى يعتبر من أقوم كتب الفلسفة فى العصر الفاطمى فهو فى هذا الكتاب تلميذ من تلاميذ الفلسفة اليونانية ذات الصبغة الاسلامية على المذهب الفاطمى وحديث الكرمانى على ابداع العقل وصفاته وخصائصه وانبعاث النفس الكلية وصفاتها وعن العالم الرومانى وعالم الكون والفساد يدل على أن الكرمانى من أكبر الباحثين فى هذه الموضوعات الفلسفية ولا غرو فان لهذا الداعى أثره فى تاريخ المذهب الاسماعيلى الى اليوم فلكل من جاء بعده أخذ عنه واقتبس من رسائله وكتبه ومن أشهر كتبه كتاب « راحة العقل » وله رسائل فى آداب الاسماعيلية وكتاب « المجالس البغدادية » وكتاب « المجالس البصرية » جمع فيها محاضراته فى التأويل(١٠٧) ٠

ويعتبر الكرمانى من أشهر الفلاسفة الفاطميين الذى تحدثوا فى الالهيات وفى هذا العصر فهو يقول فى رسالته : مباسم البشارات بالامام الحاكم فانتنى لما وردت الحضرة النبوية مهاجرا وللسدة العلوية زائرا ورأيت السماء قد أظلت بسحاب عميم والناس تحت ابتلاء عظيم ٠٠٠(١٠٨) ٠

تلك اذا شخصية فريدة لم يجد التاريخ مثيلا لها الا نادرا ٠

ثامنا ـ المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى :

هو داعى الدعاة والعالم الفيلسوف صاحب الدرجة العالية المرموقة الذى بلغت على يديه علوم الدعوة درجة سامقة والذروة العالية ، هو فيلسوف فلاسفة الدعوة الفاطمية المعروف بمناظراته مع أبى العلاء المعرى ، وفد الى مصر وأقام بها زهاء ثلاثين عاما وان لم يكن مصرى المولد والنشأة فعاش بينهم واستمع الى جمهرة منهم(١٠٩) ولقد أخذ المصريون عنه علوم الدعوة وأثر فى حياتهم العقلية المصرية بمبادئه التى اعتنقها وينادى بها ، ولقد أخذ عنه فى مصر المسك بن مالك قاضى قضاة الصليحيين باليمن الذى نقل

---

(١٠٦) وزارة الأوقاف وشئونه ـ الأزهر تاريخه وتطوره : ص ٨٧ ـ ٨٨
د٠ محمد كامل حسين ـ فى آداب مصر الفاطمية : ص ٨٧ ، ٨٨

(١٠٧) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر ـ الأزهر وتاريخه وتطوره : ص ٣٣ ـ المجلة الأزهرية ٠

(١٠٨) د٠ محمد كامل حسين ـ رسائل الكرمانى ـ نسخة خطية ٠

(١٠٩) د٠ محمد كامل حسين ـ فى أدب مصر الفاطمية : ص ٥٩

عن مصر علوم الدعوة الى اليمين ، وأصبح اليمنيون يعلنون أستاذيته لهم فى علوم الدعوة ، كما أنشد فى مصر قصائد ديوانه ، ولقد ولد هبة الله بن عمران موسى ابن داود الشيرازى بشيراز فى آخر القرن الرابع من الهجرة من أسرة اتخذت العقيدة الفاطمية مذهبا لها ، وكان أبوه حجة جزيرة فارس أيام الحاكم الفاطمى ، ومن هنا فان هبة الله نشأ ليتربع فى مكانته فى الدعوة فى هذا الاقليم ، وأخذ من نشأته الالمام بكل ما يخص الدعوة وأسرارها ، ولقد كتب الى الحاكم بأمر الله أن يولى ابنه هبة الله أمر فارس من بعده •

وبالفعل أصبح هبة الله فارس بعد أبيه كما ملك نفوس أتباعه الذين انقادوا له انقيادا كاملا حتى أنهم كانوا يروون له أسرارهم الخاصة وأسرار أهل بيوتهم ويضحون فى سبيله بأرواحهم ، مما دعى الى خشية السلطان أبو كاليجار البويهى من سطوته ، ونفوذه وفكر تفكيرا جديا فى نفيه مرارا من شيراز غير أن خوفه من ثورة أتباعه قد منعته ، ولقد زادت شقة الكراهية بين السلطان أبى كاليجار والمؤيد لدرجة أنه كان يكره سماع اسمه فى مجالسه ولكن المؤيد جاهد حتى استطاع أن يتصل بأبى كاليجار وأن يبدد الكراهية الى محبة وعقد مجالس للمناظرة بين المؤيد وعلماء المعتزلة والشيعة وأهل السنة والتى كان يبرز فيها على خصومه ومناظريه عن ذلك كله السلطان أن يميل ناحية أمام قوة بيانه ودافع حجته كما أن السلطان كان يعقد مجلسا خاصا يلقى فيه المؤيد شيئا من علوم أهل البيت والفقه الفاطمى من كتاب دعائم الاسلام للقاضى النعمان ، ولقد أغضب ذلك كله جمهور أهل السنة فى فارس وعلى وجه الخصوص القضاة والعلماء ، فأوغروا صدور المقربين من أبى كاليجار وندمائه على المؤيد ، وانتهزوا فرصة للايقاع به عند السلطان وكان المؤيد قد زار أتباعه فى مدينة أهواز فوجد مسجدا يريد أن ينقض فأقامه وشيعته ، ونقش على محرابه أسماء الأئمة الفاطميين نقشا مذهبيا كما طلب من نقبائه الأذان فيه (بـ حى على خير العمل) وهو أذان الشيعة كما خطب الجمعة باسم المستنصر الفاطمى فجهر بالدعوة الفاطمية دون خوف وأعلن عصيانه فى بلد يدين العباسيين مما جعل ودعى قاضى الأهواز الى أن يرسل خطابا الى الخليفة العباسى ببغداد ينعى الدولة العباسية وضياع خلافتها على يد المؤيد فى الدين ، كما أثار أهل السنة على أبى كاليجار وجاء الوزير العباسى ابن مسلمة موفدا من قبل العباسيين للقبض على المؤيد فى الوقت الذى فيه كان كاليجار يتطلع ويرنو الى ملك بغداد ، فاذا هما أمرين اما ضياع الفرصة من يده فى سبيل رعاية المؤيد واما أن يضحى بالمؤيد فى سبيل أطماعه •

وهنا أدرك المؤيد الموقف بتمامه بعد أن انقطع السلطان عن مجالس المؤيد الليلية ورغب فى لقائه تحت ستر الليل وفى مسالك البرارى والقفار ، ونزح المؤيد عن وطنه مختفيا حتى وصل الى مصر سنة ٤٣٧هـ(١١٠) ٠

جاء المؤيد الى مصر وملؤه الأمل فيما سيكون عى شأنه من جاه السطان لأنه خدم دعوته خدمة لم يخدمها به أحد من قبل ، وقام بها خير قيام ٠

ولكنه كان يعلم أن الأمر فى مصر ليس بيد امامه المستنصر بل هى كلها بيد أم المستنصر ووكلائها أمثال التسترى والبازورى وغيرهما ٠

ولقد صرح المؤيد فى ذلك فى سيرته بقوله :

« وبلغت بشق الأنفس الباب الطاهر مترجما بين أمل ويأس متعقبا لملتقى ما يلقانى من ترق ابحاشى وأنياسى فأما الأمل فمن جهة خدمة ما خدم مثلها غيرى ، حدانى حاد بها ونادانى بالأهل والمرحب مناديها ، وأما اليأس فمن حيث علت أن المقصود شمس توارى بالحجاب ووجهة نهار تبرقع بالسحاب وأن المسافة لعلها تقذفنى من الاضافة فى يم ويؤوينى من حيث أرادت غرما الى غرم ٠٠ أدخلونى من باب القاهرة المعزية الى قصر الخلافة عمرها الله تعالى ، فاستلمت على جارى العادة فى مثله البواب ولحت الثرايا ترابا تحت قدمى إذا ترشفت ذلك التراب ، وأجلسونى هنيهة لأفيق من غشية الهيبة التى ملأت جوانحى لما غشيت المرة بمشاهد ذلك المقام قلبى وجوارحى ثم أدخلونى الى الوزير المعروف بالفلاجى - رحمه الله - فرأيت شيخا عليه من الوقار مسحا ومن الانسانية سمة فأدنى وقرب وأكرم ورحب فخرجت فأخذنى الى دويره(١١١) وكانت فرشت لى وهما من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال لا بالاكثار ولا بالاقلال » ٠

وعندئذ استقر بمصر وعمل على الاتصال برجالها وحضور مجالس الدعوة فيها ، ولكن على جمرا تالوشايا التى لم تنقطع وفوق شوك الدسائس الحاكة على طريقه ، يقربه الوزراء تارة ويبعدونه تارة أخرى ، وهكذا يتأرجح بين السخط والرضى وكثيرا ما كانت تراوده أفكار الرحيل عن مصر ٠

ولم تتحقق أفكاره ، ولقد عمل جاهدا على أن يولى مرتبه داعى الدعاة ، ولكن باءت كل محاولاته بالفشل ، وذهبت آماله أدراج الرياح ،

---

(١١٠) د٠ محمد حسين كامل - فى أدب مصر الفاطمية : ٦٠ : ٦١

(١١١) د٠ محمد كامل حسين - فى أدب مصر الفاطمية : ٦١ نقلا عن السيرة المؤيد ٠

ولكن عينه الوزير اليازدرى رئيسا لديوان الانشاء ، وزاد معاشه وصلح حاله ووقتئذ قامت التركمانية بامتلاك بغداد ، فعلم بذلك ٠

وهنا ظهرت مواهبه وتوقد زكاؤه فأدرك خطورة التركمانية على الدولة الفاطمية اذا ما تم أمر بغداد لطغراليك الذى لا ينثنى ولا يتراجع عن محاربة أملاك الفاطميين فى أعالى الجزيرة والشام ، فأسرع المؤيد فى درء هذا الخطر الداهم الذى سيلحق بأملاك امامه ، فكاتب رجال طغراليك يستميلهم الى الدعوة الفاطمية ، كما راسل رجال العباسيين كالباسيرى وغيرهم من رجالهم الحاقدين على التركمانية ، ووعدهم بامدادات الفاطميين ان قاوموا ، ولقد رحب البساسيرى ورجاله بالعمل تحت لواء الفاطميين وباسمهم على حين عدم استجابة رجال طغراليك وعندئذ لاح شبح الحرب بين الفاطميين والتركمانية ونشوبه أصبح أمرا متيقنا عند المؤيد ، فزاد نشاطه للدعوة وخاصة بين الوزراء ورجال مصر لحرب طغراليك ، فوجدت دعوته قبولا وأعدوا ما استطاعوا من قوة وخيل وسلاح وعتاد ليرهبوا به أعداءهم وأنفقت الدولة على هذه الحملة مالا جما ذكره المؤرخون فى كتبهم ، وكان عبئا جسيما على مصر وسببا من أسباب ضعفها اقتصاديا أدى الى شدة عظمى ٠

ولقد طلب من المؤيد أن يكون رأسا لهذه القافلة ليسلم ذخائرها الى البساسيرى فحاول الاعتذار ، ولكن المستنصر الفاطمى أمره أن يكون على رأس الركب وقيادته فلم يجد المؤيد بدا من الخضوع لأمر امامه الذى خلع عليه لبس الوزراء فأبى المؤيد وأمعن فى الاباء ٠

وعندئذ سطعت فى حياة المؤيد شمس جديدة ، فاذا هى حياة الرجل السياسى العسكرى الداهية ، وخرج من مصر بحملة مفعمة بالأموال والعتاد والذخائر وبغير جندى واحد على أن يصطنع من الأعراب وأمراء البادية والأكراد وممن يشاء بالمال والألقاب والخلع من قبل الفاطميين ، وبذلك ظهر للمؤيد دور جديد بارز لا فى نشر الدعوة الفاطمية واعادة بلاد أخرى خرجت عن الدعوة وسلطانها فحسب ولكن نجح أيضا فى حرب التركمان وطردهم من العراق ورغم كثرة أنصاره فى الكوفة وواسط وحلب واستجابتهم لدعوته(١١٢) ، فضلا عن استطاعة المؤيد بما تجمع حوله فى أن ينتصر فى موقعة سنجار ٠

ولم يلبث أن يذوق المؤيد حلاوة النصر الذى أحرزه والذى على أثره دانت له الموصل والجزيرة وديار بكر حتى ظهر بين الجموع التى تجمعت

(١١٢) د٠ محمد كمال حسين - فى أدب مصر الفاطمية - ٦١ - ٦٢

حوله نفوسا ضعيفة متباغضة قتلها الحقد فدب بينهم النفور ، وحل الشقاق ، وتصدع الجمع وتفرق عنه أكثر الأمراء حقدا وحسدا على من قربهم اليه ، ووصف المؤيد حالهم بأنهم كانوا بين ذئاب تتخادش وكلاب تتهاوس ولقد باءت بالفشل كل محولات المؤيدا ليشجب الشرخ الذى تصدع بينهم ، وعلم بذلك طغراليك فانتهز الفرصة وأسرع اليهم وهزمهم والتزم المؤيد بالصبر وتحلى بالثبات وأخذ يحث القوم الى الرجوع اليه بالأمان مرة بعد المرة ولكنها كانت صيحات فى واد وبفكر عسكرى • خشى المؤيد أن يدركه العدو وهو حى فآثر الانسحاب الى حلفا واتخذ منها مقرا لقيادته ، وكانت حلب فى يد المراداسيسين الذين قطعوا خطبة الفاطميين ، وجاهد المؤيد حتى سلموا بلدهم الى الوالى الذى أرسله المستنصر الفاطمى وفى حلب استطاع المؤيد أن يتصل بابراهيم بن ينال وعمل على اغرائه واستمالته ، ونجح فى أن يخالف طغراليك بما وعده من التلقيب والخلع الفاطمية ، فكانت مؤامرة ناجحة اذ تصدعت جيوش طغراليك بانفصال ابراهيم بن ينال عنه والذى خرج لمحاربته ، واستغل المؤيد هذه الثغرة فانتهز الفرصة وأمر البساسيرى بالسير الى بغداد سنة ٤٥٠هـ ودعى على منابرها باسم المستنصر بالله الفاطمى لمدة عام •

ولو أن وزراء مصر وعوا نصائح المزيد واستمعوا لها لكان للتاريخ الاسلامى وجه أخر ولا نمحت الخلافة العباسية بسبب هذه الحركة منذ دخول جيوش البساسيرى الى بغداد ، ولكن عاد المؤيد الى مصر دون أن يحفل به أحد ودون أن تحفل مصر بامتلاك بغداد ، فلم ينفخ فيها بوق ولم يقرع فيها طبل ، ولا غرو فى ذلك فكان الوزير فى مصر اذ ذاك هو الوزير المغربى الذى لم ينس ما فعله الفاطميون بأجداده وآبائه •

وقياسا على ذلك نجد أن وزراء مصر قد أضاعوا فرصة ذهبية هيأها لهم المؤيد بدهائه وسياسته •

ويعد المؤيد من أكبر علماء عصره فى الدين ودليلنا على ذلك كتبه اذ كان واسع الثقافة ملما الماما تاما بجميع العلوم التى عرفت فى العالم الاسلامى كما كان قوى الحجة فى مناظراته وجداله مع مخالفيه • وقد صدق أبو العلاء المعرى حين وصفه بقوله « وسيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين لازالت حجته باهرة ودولته عالية »(١١٣) •

ولقد كان أبو العلاء المعرى يخشى المخاطرة مع المؤيد لقوة منطقه وفصاحة بيانه كما اعترف له بالتفوق فى الجدل وأنه ورث علم الأولين(١١٤) •

---

(١١٣) ياقوت الحموى – معجم الأدباء : جـ ١ ص ٢٠٢
(١١٤) د• محمد كامل حسين – فى أدب مصر الفاطمية : ص ٦٤

وقـد مات المؤيد سنة ٤٧٠هـ بالقاهرة ودفن فى دار العلم بجوار القصر وصلى عليه الامام المستنصر نفسه(١١٥) ٠

من مؤلفات المـؤيد

١ ـ المجالس المؤيدية :

هو أكبر كتب الدعوة الفاطمية ، يضـم ثمانمائة مجلس من مجالس الدعوة التى كان يلقبها المؤيد ، وهو دليل واضح على أن الدعوة الفاطميـة وعلومها بلغت الذروة على يد المؤيد ٠

ولقـد رتب حاتم بن ابراهيم الحامدى الداعى اليمنى هـذا الكتاب وبوب موضوعاته ونسقه وسماه « جامع الحقائق » وقـد كان دعاة اليمن يقتطفون من مجالس المؤيد ويستشهدون بها ٠ حيث مناظرات التريد ورده على المخالفين للدعوة ٠

٢ ـ ديوان المؤيد فى الدين :

لم يكن المؤيد داعيا وعالما فحسب بل كان أيضا شاعرا وأدبيا فله مجموعة من قصائد فى مدح الأئمة والحـديث عن العقائد الفاطمية ومصطلحاتها ولقـد أورد المؤيد فى ديوانه مشاهده عن حياته وتطوراتها وأحواله كما صور جهوده ٠

٣ ـ السيرة المؤيـدة :

هو أقـدم كتاب تاريخى يصور لنا الحياة السياسية والاجتماعية فى كل من فارس والعراق ومصر فى المـدة من ٤٢٩هـ حتى ٤٥٠هـ وسجلا للوثائق المتبادلة بين المؤيد وأمراء العرب وبينه وبين الوزراء المصريين ابان ثورة البساسيرى ٠

وللمؤيد كتب أخرى مثل كتاب « شرح المعاد » وكتاب « الايضـاح والتبصير فى فضل يوم القـدير » وكتاب « الابتداء والانتهاء » وكتـاب « تأويل الأرواح » وكتاب « نهج العباد » وكتاب « المسألة والجواب » ٠

---

(١١٥) د٠ محمـد كامل حسين ـ فى أدب مصر الفاطمية : ص ٦٣

ولقـد ترجم أيضا الى اللغة الفارسية كتاب « أساس التأويل » للقاضى الفاضل وهو فى شرح وتأويل قصص الأنبياء(١١٦) ٠

ان المؤيد فى الدين الشيرازى أخلص الفاطميين اخلاصا بما فى كل هذه الكلمة من معانى بل يعـد من أخلص الولاة الذين اتخـذوا بلاد المشرق مجالا واسعا لنشر دعوتهم ، وبفضل ما أوتى من حكمة ودهاء أضعف نفوذ العباسيين فى بعض بلاد المشرق(١١٧) فضلا عن حرصه وتمسكه بولاته للخلافة الفاطمية٠

والمؤيد أستاذ الدعوة فى اليمن والهنـد ، فعنه أخـذ القاضى المـلك بن مالك علوم الدعوة والتى عاد يلقيها على المستجيبين من أهل اليمن ، ولقـد ذكره ناصر خسرو الشاعر الفارسى والمعروف فى أشعاره ووصف مجالسـه اعترافا باستاذيته له ٠

وهكـذا كان للمؤيد أثر فى الحياة السياسية والعقلية والأدبية التى كانت فى نمو مطرد التى يعـد ازدهارها سببا فى ازدهار الحركة الفلسـفية التى كانت فى أغلبها تتبع عقائد الفاطميين(١١٨) ٠

---

(١١٦) د٠ محمـد كامل حسين ــ فى أدب مصر الفاطمية : ص ٦٥

(١١٧) د٠ محمـد جمال الدين سرور ــ سياسة الفاطميين الخارجية : ص ١٨٣

(١١٨) د٠ محمـد كامل حسين ــ فى أدب مصر الفاطمية : ص ١١٧ ــ ص ١١٨

المصـــادر والمراجع

اولا ـ المصادر والمراجع الفنيـة :

١ ـ القـرآن الكريم ٠٠

٢ ـ البـداية والنهاية ـ جـ ٧ ـ ابن كثير ٠٠

٣ ـ الكامل فى التاريخ ـ جـ ٣ ـ ابن الاثير ٠٠

٤ ـ المواعظ والاعتبار ـ جـ ١ ـ المقريزى ٠٠

٥ ـ النجوم الزاهرة ـ جـ ١ ـ بن تغرى بردى ٠٠

٦ ـ انساب الأشراف ـ جـ ٢ ـ البـلاذرى ٠٠

٧ ـ تاريخ الدولة العربية ـ يوليوس فلهوزن ـ ترجمة د٠ محمـد عبـد الهـادى ٠٠

٨ ـ تاريخ الأمم والملوك ـ جـ ٥ ـ الطبـرى ٠٠

٩ ـ تاريخ اليعقوبى ـ جـ ٢ ـ لأحمـد بن يعقوب ٠٠

١٠ـ حسن المحاضرة ـ جـ ١ ـ السـيوطى ٠٠

١١ـ صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ـ جـ ٣ ـ القلقشـندى ٠٠

١٢ـ معجم البـلدان ـ جـ ٣ ـ ياقوت الحموى ٠٠

ثانيا المصادر والمراجع الحـديثة :

١ ـ الفتنة الكبرى : على وبنوه ـ د٠ طه حسين ٠٠

٢ ـ الخلافة والدولة فى العصر الأموى ـ د٠ محمد حلمى محمد أحمد ٠٠

٣ ـ الخلافة والدولة فى العصر العباسى ـ د٠ محمد حلمى محمد أحمد ٠٠

٤ ـ عمرو بن العاص ـ العقـاد ٠٠

٥ ـ مصر فى فجر الاسلام ـ د٠ سيدة الكاشف ٠٠

٦ ـ ولاة مصر ـ د٠ حسين نصـار ٠٠



رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٢/٢٨٧٧

القاهرة الحديثة للطباعة
أحمد بهى الدين الخربوطلى
٣ شارع الجد بالفجالة
تليفون ٩٣٤٣١٠ - ص.ب ١٤٩١٢٨